يوميّات صحفي من الأرياف

رواية

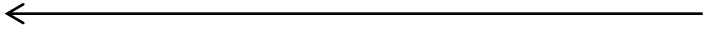

أحمد أبو اليزيد

اسم الكتاب : يوميات صحفي من الأرياف

اسم الكاتب : أحمد ابو اليزيد

تصميم الغلاف : مي مجدي

رقم الإيداع : ٢٠٢٤/٢٦٥٢٣

الترقيم الدولي : ٣-٤٣-٨٧٩١-٩٧٧-٩٧٨

كافة الحقوق محفوظة للناشر والمؤلف

لا يُسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء بأي طريقة، بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية أو غير إلكترونية، دون إذن كتابي مسبق من الناشر، ويسمح فقط في حال الاستعانة ببعض الفقرات لغرض النقد والدراسة، طبقًا لما تحدده قوانين واتفاقات حقوق الملكية الفكرية.

يوميّات صحفي من الأرياف

رواية

إهداءات

- "إلى من شقيت باسمه وعانيت، أملًا في أن أُصبح يومًا: الربيعي الصغير.

أستاذ الأجيال الأستاذ الدكتور (محمود بخيت الربيعي)."

- "هكذا فهمت أو اقتنعت بأن العلم زواج كاثوليكي لا يقبل التعدد ؛ فما كنت أبدعت.

أُستاذي المُباشر الأستاذ الدكتور أحمد درويش."

- "ابن الريف الذي لم تغيره أضواء المدينة على طول الخط.

الأُستاذ الدكتور أحمد بلبولة عميد كلية دار العلوم."

- "إلى ابنتي الوحيدة (جنى)، الطالبة بالجامعة ، والتي تحملتني فوق طاقة الاحتمال، ومازالت تعزف سيمفونية بابي الذي أحببت.."

- إلي روح أبي وأمي وجدتي ؛ أهدي لهم ثواب هذا العمل.

الفصل الأول

١٩٩٤/٤/١٦

"توقف ومزاج"

- وحيد بك عايزك..
- خير؟ وحيد بك رئيس مجلس الإدارة؟
- لا: وحيد بك رئيس التحرير.
- آآآآه، هو بقى " بك "الآخر؟ انا أعرف اسمه الأُستاذ وحيد فقط!، عمومًا أنا جاهز تفضل.
- أنتَ أحمد بخيت؟
- طبعًا أنا أحمد بخيت؛ خيرًا؟!
- أنتَ كتبت الخبر الذي في ذيل الصفحة الأولى؟
- أيوه انا!
- تمام، أنتَ موقوف عن العمل عندنا..
- ازاي يا ريس؟ الخبر صحيح وسيارة مُدير الأمن هي التي صدمت المواطن وخالفت قواعد المرور، وأنا رأيت هذا بنفسي!
- المفروض إنك كنت تحصل على الخبر من المُستشفى أو النيابة..
- ازاي يا فندم؟ ومن سيُعطي ذلك؟ أو حتى يصرح ليّ؟ وده سبق وأنا أثبت به.

- كلامك غير صحيح بالمرة، السيارة ٩٢٦٥ ملاكي القاهرة قيادة السائق فُلان ..... وهو مُعين بمجلس الوزراء وليس مُديرية الأمن!!
- ولكن يا فندم السائق مُنتدب للمُديريّة والسيارة ضمن سيارات المُدير، وانا قُلت في عُنوان الخبر ومتنه" : سيارة مُدير الأمن تصدم مواطنًا وتُخالف قواعد المرور "ولم أقل مُدير الأمن هو الذي خالف!
- أنتَ موقوف عن العمل.

خرجت أجر أذيال الهزيمة من مكتب رئيس التحرير المحسوب على المُعارضة في وجه النظام، ولإحقاق الحق في دولة الدستور والقانون التي تقوم على المؤسسات والحق والعدل والحريّة، حُريّة الصحافة من أجل المُجتمع؛ ولكن نسيت الرئيس السادات الذي قال يومًا "إن للديمُقراطيّة أنياب"، ويبدو أنني لم أرى هذه الأنياب حتى طحنتني وأكلت عظامي ولحمي.

الرئيس السادات قال أنياب ولم يقل "ضروس" المُشكلة في الأنياب وليس الضروس، للمثل القائل "ده نابه أزرق"، أمّا كلمة أو قول فُلان هذا "ضرس" فمعناه رجل خبير بأمور الحياة وكلماته لابد أن تُتبع.

هل تتوقف الحياة عند هذا الحد؟ لا لابد من النهوض من جديد!

تركت الدور الرابع كله وصعدت إلى الدور الخامس، حيثُ قاعات الحزب ونشاطاته، لأدلف إلى قاعة الشباب وهي القاعة الفسيحة المُترامية الأطراف، في رُكنها فقط حُجرة الأمين العام وكيل الحزب.

مُحررون يجلسون في الردهات، نافرين من ضيق الدور الرابع الذي به الجريدة الرئيسة، وجريدة أُخرى فرعيّة؛ ولكنها تحظى بقرّاء أكثر، لميلها إلى نشر نشاطات الجماعات الدينيّة، وخاصة في الجامعات والجمعيات الأهليّة... على الفور زجرتهم زجرة مدويّة بترك قاعة الشباب على الفور والنزول إلى حيثُ يعملون، فهم ليسوا أعضاء في الحزب ولا يُمثلون كُتلة يعتمد عليها النشاط السياسي، فتُتيح له قاعدة جماهيريّة ترتفع به إلى مُحاولة مُشاركة السُلطة في الحُكم أو حتى التشاور في الأمر.

عندما رمقني رئيس قسم الحوادث في دهاليز الجريدة أمطرني بسيل كلماته؛ أنني أعتاد نشر الأخبار الكاذبة وليس هذا حقيقي؛ ولكن يُدافع عن القسم الذي يترأسه وهو منزوٍ في زاوية أمنيّة يُحاول من خلالها أن يجعل لنفسه مكانة يهاب منها قطيع كبير من الجماهير.

إنتظرت حتى التاسعة مساءً وأنا في شغفٍ لرؤية العدد الصادر غدًا، وماذا سيقول عمّا نشرته اليوم؟ ففوجئت بنشر برواز مائل على عمود في الصفحة الخامسة بطول ٥ سم بعُنوان "استدراك" لا علاقة لمُدير الأمن بحادث السيارة، ويفيد أن السيارة رقم ٩٢٦٥ ملاكي، قيادة السائق فُلان (٤٥) ... سنة، موظف بمجلس الوزراء، أثناء وقوع الحادث.

تنفست الصعداء وأطلقت زفيرًا وراء زفير، وأنا أحتسي الشهيق بعُمق كبير تنتفخ معه كلتا رئتي، فتُفر راحة وجهي والكفين بعدما عشت ساعات بين اليأس والرجاء.

وإستنتجت من ذلك كله أن الخبر صحيح مائة في المائة، وثمَّ محاولات لتمييع الأمر كي لا يُصاب صاحبه بالكرب العظيم!

مسئول رفيع المستوي إتصل برئيس التحرير غاضبًا شديد الغضب من النشر، وهو ما جعل الثاني يطير فرحًا ويطرب لهذا الإتصال ويفتح

معه قناة جديدة نحو الشُهرة، وقناة تبيح له خدمة أهله وذويه، بإنتقاله إلى الوزارة القريبة جدًا من مقر جريدتنا بوسط القاهره كما أن تدخل الإعلام في الأمر زاد مرونة في التعامل، وأصبح رئيس التحرير بين يوم وليلة "نجم سيما" يتلقى إتصالات الوزراء والمُحافظين وكبار رجال الحزب الحاكم بعدما كان يدور على مقاهي وسط البلد، من مقهى البُستان فالتكعيبة إلى عم غزال وبعَرَه والشيشة، لا يهدأ له بال حتى يرى ساحات الوسط السياسي والصحفي ومجريات الأمور .. هو شاب نزح من السويس بعد حصوله على بكالوريوس التربيّة قسم الجُغرافيا عام ١٩٧٨ .

وقرر أن يغزو القاهرة مُتسلحًا بناصريته التي أعتنقها من أجل الشُهرة وأكل العيش، صحفي حتى النُخاع يملُك ناصية الكلمة، خطيب مُفوه، تنقل بين الأحزاب جميعًا، يعتنق المُعارضة ليصنع له مقعدًا يسايره أتباع يدينون له بالولاء، يُبايعون بالروح والدم نُفديك يا مُناضل!

رغم أنه تعيين مؤسسة روزاليوسف الحكومية إلَّا أنه لم يقتنع بهذا الدور الذي اتخذه فقط مَعْبر يحصُل بِمُقتضاه على عضويته في نقابة الصحفيين، التي تتيح له الشرعيّة، فمُجرد حصوله على المُشتغلين هجر الدار ليبحث عن أحلامه، فلجأ إلى حزب مغمور مُستمد الاسم من قبل ثورة يوليو، يحتضن فلول الناصريّة في مقر له بسطوح إحدى عمارات الدقي، فلا تمثيل له بالبرلمان أو حتى المجالس المحليّة، ولا النقابات المهنيّة، يفتقد تمثيل أمانات المُحافظات إلى حد كبير، يتكون من الرئيس ونائبه والأمين العام وعشرة أعضاء يُمثلون الأمانة العامة، إضافة إلى الساعي والبواب وسائق رئيس الحزب.

في مسافة شهرين من عام ١٩٩٠ صرح رئيس التحرير بجريدته ليُناطح المائة ألف نُسخة، مُنتصراً على جميع الصُحف الأسبوعيّة ومنها الشعب الرائدة لسان حال حزب العمل.

عام واحد قضاه رئيس تحرير فحقق ذاته وذات الحزب، لمع اسمه ولفت أنظار السياسة إليه، مشى في ركاب الرَائج تحت عباءة الأُستاذ هيكل و واكب الحداثة في سعده ونافع، بإختصار شديد هو رجل لكل العصور، نما نموًا سريعًا وازدهر مهنيئًا مُبكرًا، وثابر في الحياة وركض في كل مواقفه واقتنص كل ما يحلُم به، من حجرة فوق أسطح عمارات ميدان الجيزة إلى شقة فارهة في أبراج الأغاخان على كورنيش النيل، يتحرك بتوأمه مثل حسام وإبراهيم حسن، حتى صار أشهر توأم في الصحافة المصريّة.

ضحكت كثيرًا وسخرت من نفسي على كل ما ذكرته بإعتباره من قبيل النمّ أو القر! ويُمكن أن يصل إلى الحقد والحسد، الرجل كافح وراء لقمة عيشه كفاح المُستعمر وراء مُستعمراته، قارئ نهم، لا ينام في ليله سوى أربع ساعات، يقترن بزوجة أتى بها من أقاصي الصعيد، سعادتها في رضاء زوجها عنها...

ثُم تذكرت نجمة أُخرى من نجوم الصحافة المصريّة ازدهرت سريعًا في الوسط حتى صارت من ألمع نجوم المُجتمع، تتمتع بجمال هليودي خطير، يلفت أنظار الجميع وخاصة زُملائها في خدمة الأهرامات وأبو الهول، تحمل فوق عاتقها سكرتارية الأثري الكبير، علاوة على عملها الشاق في سقاية السياح والاهتمام بهم وبالأثر ... كانت تقوم بحمل الأخبار الصحفيّة أملًا في نشرها بإحدى المؤسسات السياسيّة بشارع الصحافة بتسليمها إلى سكرتير التحرير القماش، ثُم تجلس لتناول الشاي والحوار مع الجالسين وسط زحمة سكرتير التحرير الذي يُحاول صرفها لإنشغاله؛ ولكنها تهوى الجلوس إلى ساعات طويلة تمتد من العصر حتى مُنتصف الليل دون ملل أو كلل، فإذا ما انصرف الساعي تتبرع هي بعمل الشاي وتُساعد في تصفيف الأوراق وتضفي على السهرة نوعًا من البهجة، هي بيضاء ذات شعر أصفر، ترتدي أفخم الملابس، في الثلاثينات من عمرها، فقد تكون من مواليد الستينات على أقصى تقدير...

عام على هذا المنوال، مما أدى إلى حالة من الملل لدى سكرتير التحرير خاصة بعد أن علم أنها مُطلقة ولم تنجب وتُعاني من الوحدة، فطلب من الساعي أن يحصل منها على نشرات السياحة اليوميّة ويصرفها بدعوى أن سكرتير التحرير مشغول ولا يستطيع مقابلتها.

ورغم هذه التعليمات أصرت على الجلوس في أضيق مكان على أقل مقعد دون ملل أو كلل **...** استمر هذا عدة أيام وأسابيع عبر دهاليز الدور التاسع المشهور بالدور القيادي ولكل إنسان طاقته الاحتماليّة، ووراء كل هذا الصلف والتنكر من سكرتير التحرير الذي هو صديق الأثري الكبير، قررت في قرارة نفسها أن تخرج ولا تعود ويحدُث ما حدث، فالإنسان دمٌ وشعور.

وأثناء مُحاولتها النهوض وهي تُلملم ملابسها الخفيفة الأنيقة وتستعد لحمل حقيبتها طويلة الذراع، طلب منها الحراس أن تنتظر لأن رئيس المؤسسة يستعد للدخول، فقد كان في اجتماع مهم في إفتتاح معرض القاهرة الدولي للكتاب، وكان يحظى عند الحكومة بالقبول إلى درجة أن يستشار أمام الجميع**!**

وفي غمرة دخول القصير المكير، تتحرك عيناه يسارًا ويمينًا، تتفقد أرجاء مملكته التي يتعهد بمفاتيحها لدى الحكومة؛ وقعت عيناه على تلك الحسناء ذات الشعر الأصفر والوجه الهافاني، والأذرع الملائكيّة، والأرجل المصقولة، والصدر السجنجلي الذي تزينه سلسلة ذهبيّة مُدلاة من الرقبة التي تُماثل رقبة الفنانة وردة الجزائريّة**...**

وقبل دخوله إلى ساحة مكتبه أشار إلى مُساعديه بالسؤال عن هذه الضيفة الجميلة، فقيل له: يا ريس هذه من مصلحة السياحة، تأتي بالأخبار لسكرتير التحرير الذي هو صديق رئيس المصلحة، فطلب منهم إدخالها عليه لكي يطمئن على الأهرامات وأبو الهول والقباب والأحجار الكريمة هُناك، في التو انطلق الحراس يدعونها لمُقابلة

الريس، فاهتزت بكل جوارحها الأنثويّة وازداد احمرار وجهها وحاولت أن تطيل أذيال ملابسها دون جدوى، وهيّ لا تُصدق نفسها؛ أحقًا سترى رئيس المؤسسة وتُصافحه يدًا بيد! وتوجه نظراته الثاقبة إليها، وكيف ذلك؟ وهو لديه من الحسناوات ما يفوق عدد شعر رأسها الأصفر الأنيق الكارتيري الذي يتدلى على كتفيها من صفحة عنقها في استرسال ذا بريق أنثوي.

بمُجرد دخولها لا تعلم أبالقدم اليُمنى أم باليُسرى كان الدخول، ووسط زحام المكتب كانت تمضي بخُطى واثقة أن الربَّ كتب لها هذه المُصادفة التي طالما حلمت بها مُنذ التحاقها بكلية التجارة بجامعة عين شمس حتى تخرجها عام ١٩٨٢ بتقدير جيد، فألحقها بعمل إداري بقطاع السياحة لم تقنع به؛ ولكنها خرجت به من نطاق أُسرتها الكائنة في أُم خنان بالبدرشين.

قدمت يدها اليُمنى لتتبارك بكف "الريس" الذي بدأ وكأنه أظلم فجأة وانطفى نوره، لأن النور الذي هلَّ عليه مصابيحه عالية وإشعاعاته قوية .

- أنا اسمي نور يا فندم موظفة إداريّة بالسياحة المصريّة وجئت لكي ..... ثُم لم أجد ..... وفجأة ..... كُنت.....

تقطعت كلماتها وهيّ تُحاول أن تُبرر وجودها وكأنها تدفع ضريبة برودها الشخصي، حيثُ هذا الرجل المتغطرس قوي الملامح، قرمزي الوجه، أكرت الشعر، مرهمي الشفتين.

- اجلسي يا بنتي: تشربي إيه؟
- العفو يا فندم أن شاربه وواكله قبل ما آجي.
- لأ، عيب لازم تشربي حاجه، احنا هنا كُرماء ... هاتلها عصير ليمون يا عصام .

وعصام هذا ليس كبير السعادة ولا مُدير مكتبه، إنه صحفي مشهور؛ ولكنه في هذه اللحظة فأر قصير في حومة القط المشمشي، وفي ثوانٍ معدودة دخل عصام يحمل صينية أنيقة عليها كوب من الليمون المضروب في الخلاط، تعلوه "ريمة" بيضاء ليقدمه لستِ الحُسن والجمال التي لاقت القبول عند سيده وولي نعمته!

تناولت أماني كوب الليمون، فرشفته بشفتيها الحمراوتين بدون روج، ورفعت فمها إلى أعلى، فظهرت عروق رقبتها باللون الأخضر، وكأن الليمون يكاد ينسكب من حنجرتها، ويرى المرء بالعين المجردة تحركات (شاهد المُبارة وكأنك في الملعب) ،حاولت نور أن تُسبل عينيها وتمسح على شعرها، وتحرك سيقانها، وتلمس أنفها، وتحسس على ملابسها؛ حتى تفلت من نظرات رئيس المؤسسة إليها، وكأنهم رصاصات غدرٍ مصوبة فتصيب.

قال الريس : أنتِ بتحبي الصحافة يا نور؟

- طبعًا يا فندم، ده أنا بعشقها، علشان كده بنتهز الفرصة التي تأتي بي إلى هُنا، وهذه المؤسسة العريقة.
- طيب، ولما هذه المؤسسة بالذات؟
- ببساطة يا فندم، أنا أُحب كتابات حضرتك وقنابل حضرتك ضد المُعارضة، و ردودك عليهم، هما عايزين يخربوا البلد يا فندم ويعملوها فوضى، وحضرتك تُريد لبلدنا الإزدهار واحترام الحكومة ليك، وذكرهم لك في خطاباتها ينم عن أن حضرتك رجل دولة من الطراز الأول يا فندم.
- أشكرك يا بنتي، أنا كل ما أرجوه مصلحة المواطن الغلبان، وتخفيف المُعاناه عن كاهل محدودي الدخل، وحريّة الرأي، وهذه هيّ الديمُقراطيّة التي يأمرنا بها القانون والدستور؛ صحيح، كيلو اللحمة بـ ١٢جنيه، بس في أمل لتخفيض الأسعار!

- نعم يا فندم، نعم وحضرتك الناس بتقرأ لك في كل مكان، في المقاهي والترمواي والمدارس والجامعات، وحتى السُّياح يعشقون كتابات حضرتك، ويعتبرونك المثل والقدوة.

حضرتك يا فندم لمّا فجرت القنبلة في وجه المُعارضة قاموا بالعراك فيما بينهم؛ لأنك ببساطة "قلعتهم هدومهم" وعرتهم قدام الرأي العام..

هنا أطرق "الريس" برأسه لهذا الإطراء والمدح الذي تعود عليه وعاش فيه؛ ولكن في هذه المرة يخرج من بين شفتي هذه الحسناء ذات الأسنان العنبريّة والصدر السجنجليّ، وتوقف عند مسألة "قلعتهم وعريتهم"، وطلب منها شرح هذه العبارة؟

- **فقالت** : بالبلدي كده يا ريس كأنك مسكت واحد وقلعته هدومه "بلبوص" في الشارع، فاتفضح لأنه من غير هدوم.
- **قال** : تقصدي واحد ولا واحدة؟
- هههههه، اللي يعجبك يا فندم زي ما تحب، أهم حاجة إنك انتصرت عليهم.
- تحبي تشتغلي معانا في المؤسسة؟
- يااااه يا فندم، ده حلم حياتي إني أشتغل تحت قيادة سعادتك، وأنفذ أوامرك واتعلم منك معنى حُب الوطن.
- بس أنتِ موظفة ووراكِ بيت وأولاد، والصحافة عاوزه التفرغ!
- أقدم استقالتي الصبح يا فندم، وانا مُنفصلة وماخلفتش وتحت أمرك بالليل قبل النهار!
- يااااااه بالليل قبل النهار؟ البنت دي هتعمل انقلاب في حياتي وتعيد شبابي وتكبح نزواتي وتذيب صهواتي...
- ماشي يا أماني، هاتي أوراقك بكره، وأنا هطلعلك قرار التعيين وأشوفك تكوني عند حُسن ظني ولا لأ؟
- هكون يا ريس عند حُسن الظن أكيد..

وقامت وكأنها تعلن ركوضها تحت أقدامه ولم تنس أن تفتح زرار جديد في فتحة صدرها السجنجلي؛ ليُضيء قلب الريس المُنهك في العمل من أجل البلد، والذي يعمل ١٨ ساعة في اليوم .. مدت يدها وكأنها تكتب العقد، وتركتها بين يديه دون أن تسحبها، وكل من بالمكتب كأنهم يراجعون البروفات، مشغولون بصدور العدد، وأمور التوزيع والإشتراكات وعدد الإثنين الأهم الذي به ١٨ ألف نُسخة اشتراك، علاوة على توزيع نصف مليون نسخة على مستوى القطر المصري، خلاف الدول العربيّة والطبعات الدوليّة..

حاولت سحب يدها مرة ومرتين وفي الثالثة نجحت في سحبها وأرادت أن تعود بها ثانية لإحساسها بالبرودة بعد الدفء، ثُم انصرفت وهي تكاد تطير من الفرح وتطرب وهي تراقص سيقانها المدورة المصقولة .. إلى المجد، إلى الشهرة، إلى عوالم جديدة من الحياة التي بدت كلها في عيون رئيس المؤسسة، والضريبة بسيطة جدًا وسهلة جدًا، تُؤدى بأريحية وشوق، ويحدث ما يحدث...

صرخ الرئيس في مُساعديه : إيه رأيكم يا رجالة؟

- في إيه يا فندم؟
- في ذوقي يا نور!
- عالي يا فندم، في السما عالي، شد حيلك..

جلس على مقعده ورفع كلتا رجليه على المكتب وهو مرتدي حذائه والنعل مصوب تجاه كل من في القاعة وهو يتحدث من ورائه، وهم يواجهون النعلين ويكادون تقبيلهما.

- ربنا يديك الصحة يا ريس، ويعلي مراكبك، ويخليك للبلد وللحريّة.
- شوفوا يا بهايم : ربنا يخليني ليكوا انتوا
- هههههه، طبعًا يا فندم طبعًا

- أنتم عايشين في خيري وتحت رايتي بتكسبوا أحلى فلوس، وبتعملوا مصالح وبقى ليكوا نفوذ في البلد، وحاجزين أراضي في أكتوبر وفي الحزام الأخضر، وعندكم شقق في مايو والعاشر، وكنتم جايين من الريف حافيين وراكبين قطر منوف وقطر المناشي والصعايدة منكم متشعبطين في السبنسة ومنهم مسطحين على قطر الصحافة..
- هههههههههه، ربنا يخليك لينا يا فندم، إحنا عايشين بحسك وتحت رايتك.
- مش بس كده يا بهايم، أنا ساندكم وليكم سند، وبتروحوا أي وزارة تضربوا التخين باليد، وترافقوا الوزراء، والمحافظين، ومنكم بيسافر برا..
- صح يا فندم، كل ده حصل وبيحصل في عز سعادتك يا حامي حمانا وفاتح بيوتنا ورازقنا بخيرك..
- الرازق هو الله يا رجالة، أنا عبد فقير لا حول ليّ ولا قوة، كل اللي بطلبه من ربنا أعيش عشانكوا وعلشان المواطن الغلبان اللي بيستنى دعم الشمعة، وطلبة الجامعة اللي عايزين حسنة، أنا الكل بيقولي أنتَ رجل دولة من طراز فريد يا سعيد، بتحب وطنك أكتر من أهلك وعشيرتك، قلتله : لا يا فندم، اسمحلي .. أنا بحبك أنتَ أكتر من أهلي وعشيرتي والوطن.
- أنتَ الوطن يا فندم، حاكمنا بالعدل وحامينا بقوتك، ورازقنا من نعيمك ومغرقنا في دعمك للشعب يا فندم : سكر وزيت وفول وعدس ولحمة وفراخ..
- شايف يا واد أنتَ وجمال واللي ساهي جنبكم غزال، أنا هعيش لحد ما كلكم ترتاحوا وتبقوا أغنياء وتملؤا كروشكم وتركبوا عربيات بيجو وشاهين ولادا، بدل الأتوبيس أبو تذكرة بشلن! أو التروموای أبو قرشين بتاع الميرغني..

بدل ده كله الحكومة عملت ليكم مترو الأنفاق تحت الأرض وفوق الأرض من حلوان للمرج، ولسه هيتعمل كتير قبل نهاية القرن العشرين.

- هو فين القماش يا أولاد؟
- موجود يا فندم، حالًا هيكون عندك..

لم تمر سوى ثلاث دقائق و إذ بالقماش يصل ويقف بين يدي رئيس المؤسسة، ينشغل رئيس المؤسسة سعيد بك بإشعال السيجار ماركة الهُمبار، ثُم يرتشف قهوته وسط رنين لا يتوقف من هواتف مكتبه التي يصل تعدادها إلى تسعة خطوط في زمن ينتظر المواطن عشر سنوات ليأتيه الدور بتركيب خط تليفوني، يصله بأهله و ذويه..

خطوط رئيس المؤسسة موزعين كالآتي : خط للرياسة فقط لونه أحمر، وخط مع رئيس الحكومة ورئيسي مجلس الشعب والشورى، وخط مع وزراء السيادة (دفاع، خارجيّة، داخليّة، إعلام) ثُم خط مُباشر يربطه مع وزراء الخدمات وآخر للمُحافظين وغيره لرؤساء التحرير والمجلس الأعلى للصحافة.

كما خصص خط للمواطنين يبثون من خلاله شكواهم تحت رقم ١٣٧، ينتقل المُحرر إلى موقع الحادث مُباشرة ويتابع الحالة التي تحتاج علاج أو مسكن جراء زلزال ١٢ أكتوبر ١٩٩٢ المُدمر الذي آتى على الأخضر واليابس، وأحدث خلخلة للمباني القديمة والآيلة للسقوط، خاصة في المناطق العشوائية.. لم ينس سعيد باشا تخصيص خط مُباشر في مكتبه للإذاعة والتليفزيون وكبار الفنانين والفنانات الجميلات، فسيادته يُحب الجنس الآخر بنهم، رغم أنه تجاوز الستين، كل ذلك والقماش سكرتير التحرير يقف مُنتصب الهامة، وكأنه في موكب جنائزي مهيب، أو هو يستعد لتلاوة حكم إدانة من رئيس المحكمة، فلا يتحرك ولا يحرك شيء داخله سوى الشهيق والزفير ونبضات القلب السريع وحركات أهداب العينين، ذلك لمُدة ربع ساعة..

إنتبه سعيد بك لوجوده وكأنه تعجب، ثُم تنبه إلى أنه استدعاه لأمر مهم، وما هو الأمر المهم؟ وليس أهم من مساءلته عن معرفته بنور موظفة قطاع السياحة التي ترتدي الكاب الفرعوني، فتصير كحتشبسوت ونفرتاري وأميرة هليود، البيضاء بحُمرة الدم ذات الشعر الأصفر والعينين الدعجاوين اللتان يتراقص تحت أشعتهمُا أجعص شنب.

- قولي يا قماش؟
- تحت أمرك يا فندم، خدام معاليك يا ريس، ربنا يديك الصحة ويطول عُمرك، يا فاتح بيوتنا و رازق أولادنا ومراعي فقيرنا ومدوب فوارق طبقاتنا ..... و.....
- يا قماش أنا مستدعيك علشان أسألك عن موظفة السياحة التي تتردد عليك في المؤسسة من حين لآخر... ؟
- أنا معرفهاش خالص يا فندم ولا عندي فكرة عنها، هيّ بتيجي وتجيب نشرة السياحة من عند المزهو بيه بس يا فندم علشان أنا أعرفه معرفة شخصيّة ويصر أن تصل النشرة إلى يدي مُباشرة، وأنا بأخذ النشرة منها وانصرف، وبعد كده معرفش عنها حاجة.
- بس هيّ بتقعد ساعات طويلة كل مرة تأتي فيها المؤسسة يا قماش!
- أنا بكون مشغول يا فندم في تجهيز العدد الصادر غدًا ولا أهتم أو حتى أنشغل إلَّا بأوامر سعادتك.
- طيب مافيش مرة خرجت أنتَ وهيّ إلى الأمريكيين أو الليدو أو حتى كورنيش ماسبيرو؟
- ماحصلش خالص يا فندم، هيّ مين دي اللي انا أخرج معاها؟ ده حتى أنا مش بستلطفها خالص.
- ليه مش بتستلطفها؟

- دمها باهت يا فندم وباردة وحشريّة ومُتفرغة ومُمكن تدخل في نقاش بالساعات دون ملل أو كلل، الوحدة قاتلاها يا فندم هههههههه**....**
- عرفت منين إنها تعيش في وحدة يا حمار؟
- من كلامها مع الزُملاء يا فندم**...**
- طيب ماحاولتش تآنس وحدتها وتخفف عنها يا قماش ولا مرة واحدة؟
- ما حصلش يا فندم، أنا دومًا مشغول**....**
- مع إنك نسوانجي يا قماش وبشوفك على الكورنيش وأنتَ راكن عربية المؤسسة ونايم على كتف البت أو منيمها على كتفك**!!**
- ربنا يطول عُمرك يا فندم ويعلي مراكبك و دومًا عند حُسن ظن الريس بالخير، أنا وحداني ومقطوع من شجرة وماعنديش وقت للزواج خالص**...**
- يعني ماعندكش وقت للزواج تقضيها صرمحة يا قماش؟ هههههههه
- اعذرني يا فندم أنا دم ولحم برضه ومن رعاياك يا مولاي هههههه
- طيب إيه رأيك في البت دي تتنازلي عنها وأعوضك بأي حاجة تانيه**!**
- هههههه، هي لك يا ريس مبروكة عليك، أبصم بالعشرة والعشرين.
- طيب ماعندكش مفاتيحها من أي نوع أقدر أتسلل لقلبها وتكون صديقة وزميلة وحنونة**!**

- هيّ مش محتاجة مفاتيح يا فندم، أبوابها من غير كوالين ولا ترابيس، إدفع الباب وادخل يا فندم من غير إستئذان ولا إحم ولا دستور....
- مالكش دعوة بالدستور يا حمار هههههه، الدساتير ليها ناسها .....

عارف يا قماش، اقعد اتفضل، خذ سيجارة وهاتله شاي يا عصام وشوفلي الزيني خلص المجلة ولا لسه واتصل بالبقري نشوف آخر أخبار كأس العالم و دور مصر إيه، مادخلناش من سنين طويلة يا قماش يا حبيبي.

- طبعًا يا فندم طبعًا، هنجيب الكأس بإذن الله، ونرفع الرأس...
- هههههههههه، أنتَ عملت زي آمال فهي بالضبط في برنامجها على الناصية بتدعوا المصريين للدعاء، علشان نجيب الكأس!!
- ده تهريج يا حجازي، إحنا لو خطينا إلى دور الـ ١٦ تبقى كرامة وسلامة..

حسام حسن وأخوه إبراهيم دول عباقرة من طراز فريد، توأم مُتميز وهاني رمزي وشوبير ومجدي عبد الغني ..... و ..... و..... .

- بس الخطيب اعتزل يا فندم؟
- الخطيب ده سيظل أفضل لاعب كرة مصري على مر التاريخ، أخلاق، أدب، مهارة، ولد متربي على طبلية أبوه بجد...
- بس الزمن اتغير وكفايه أخدنا كأس أفريقيا ٨٦ وده مش قليل.
- لازم يا ولاد نضخ دماء جديدة في شرايين الشعب المصري كله، في كل المجالات.
- طيب والصحافة يا فندم؟

- مالها الصحافة؟ ما هيّ كويسة وماشية زي الفل واحنا بنور أجيال ونعلمكم، من غيرنا سيأتي جيل غير قادر على القيادة، فتموت المهنة وتندثر، أنتَ عاوز ايه يا زيني بالضبط؟
- أقصد يا ريس إحلال وجوه شابه في الأحزاب السياسة والمؤسسات الصحفيّة وخاصة الحزب الحاكم؛ لكي تضخ دماء جديدة قادرة على التعامل مع مُتطلبات الحياة والحوسبة
- بص يا زيني **:** صدق المثل القائل "لا تعلموا أولاد السفلة العلم، ولا تجلسوا مع الكلاب الضالة، فهم لا يحسنون القول".
- احنا اللي صنعنا التاريخ وبنحمي البلد ونسير بيها للعالميّة بفضل خبراتنا ومجهودنا وعلاقتنا الدوليّة، نحاور ملوك ورؤساء وأمراء دول، يعرفوننا بالاسم ويتصلون بنا، ونساهم في الدبلوماسيّة العالمية، وكذلك قيادات الحزب الحاكم**...**
- يا زيني كان أبوك (مزيّن**)** وبفضل الديمقراطيّة بقيت تجلس بين أسيادك، أما من الآن فصاعدًا فمكانك مقلب الزبالة.

طلعولي قرار فصل لأن مؤهله دبلوم صنايع، لا يرتقي للمؤسسة؛ لأوقعه**.**

****

الفصل الثاني

١٧-٩-١٩٩٥

"ليالي غبراء"

ماذا تصنع يا أحمد بعد قرار الإستبعاد من العمل بالمُكافأة بجريدة الحزب اليوميّة، هُم أربعون جنيهًا؛ ولكن فائدتهم عظيمة، منهم ١٢ جنيه مواصلات الأتوبيس صحيح زاد بس رُبع جنيه مش كتير، وثُمن الكبدة عند الحاتي بإثنين جنيه وربع، والشاي برُبع جنيه والكولا بنص جنيه والصاروخ منها بجنيه، يعني يكفي الشهر بالتمام والكمال والحمدُ لله..

السكن عند الأقارب في فيصل مجانًا، بس مافيش راحة من الحكايات والروايات والقصص والأفلام عمال على بطّال.

- أنتَ مش هتبطل (نقل) كلام في العيلة... ؟
- ماحصلش يا سالم أنا في حالي وعمري ما قُلت عليك كلمة وحشة!
- قلت كتير ومالكش قعدة بينّا طالما أنتَ كده، وهمَّ بتحريك يده والتلويح بها في الهواء، مع الألفاظ غير المرتبة وسط احمرار عينيه...
- سالم خلاص، خلاص .. أنا ماشي.

وكأنه كان ينتظرها، فلملم أقواله وخرج كأنه حقق هدفه من رسالة مُرسل بها..

جمعت ملابسي القليلة وكُتبي الأقل في حقيبتين وارتديت ملابسي وهممتُ بالخروجِ، وإذا بأولاد عمي الصغَار يبكون ويندبون حظي وحالي وإلى أين المسير؟

قلت : بلاد الله واسعة.. أوصدوا باب شقة الحاجة؛ كي لا تراني فتبكي وتمسك بي وأنا لا أُريد أن أخضع لدموعها، فقد قررت الرحيل ولا منجى منه إلَّا إليه، توكلت على الله، أملك في محفظتي جنيه مصري واحد، وها قد تناولت طعام العشاء، فلا حاجة لي إلى الزاد حتى اليوم التالي، الساعة الواحد بعد منتصف الليل ، لا توجد مواصلات؛ ولكن المسافة لا تحتاج إلى أكثر من نصف ساعة على الأقدام تكون كافية بوصولي إلى عزبة "أبى قتادة" حيثُ يسكن مجموعة من العُذَّاب بلدياتي، يعملون في المطاعم، صحيح هُم تسعة في حُجرة واحدة بحمام مُشترك؛ ولكنّي أبحث عن مأوى يقيني ظُلمة الليل وقسوته وآثامه حتى شروق الشمس، ويفعل الله ما يُريد..

- خير مالك، في حاجة؟ سبت بيت قرايبك؟
- نعم، طردوني ولم يعد لي مرجعية؛ بسبب خلافات عائليّة.
- وأين ستُقيم؟ وأين ستسكُن؟
- أريد منكُم السماح لي بقضاء هذه الساعات المُتبقيّة من الليل هُنا على أن أُغادر مع شروق الشمس.
- نحنُ نستيقظ السادسة صباحًا ونُغادر الحُجرة ونغلقها ولا يوجد كسرة خبز واحدة.
- أنا لستُ جائعًا والحمدُلله ويُمكنني أن أستمر على لحم بطني ساعات قادمة، ولن أكلفكُم غير النوم أربع ساعات..
- السرير لا يكفي سوى أربعة والباقي ينامون على الأرض، بلا غطاء أو وسادة!
- يكفيني أن أستريح بأي وضع حتى وإن توفر لي موضع أقدامي أمام دورة المياه..

- تمام، هذا ما عندنا لك على أن نوقظك السادسة صباحًا حتى تذهب.
- يبقى كتر خيركُم وجمِيل لن أنساه طيلة حياتي..

لم أكمل جُملتي حتى وجدتني أتيه في غيبوبة أفقدتني الوعي، أو الصدمة التي هربت منها، وإحساسي بالأمان جعل جسدي يميل إلى الراحة بعد عناء الساعات الماضية..

الرابعة صباحًا إستيقظت وأنا أرتدي ملابس الخروج، فلم أكن بعدما إستبدلتها بملابس النوم، ووجدتني أتأبط حقيبة كُتبي، ووضع لي واضع حقيبة ملابسي تحت رأسي أمام دورة المياه التي تفوح بكل صنوف الروائح الكريهة.. ومن آثارها ما هو يروث ملابسي جراء خروج و دخول ٣٤ ساكن في شقة مهدمة من شقق "أبى قتادة" في ثلاث حُجرات، تفتقد الآدميّة بالمرة..

بدأت أُلملم عظامي ولحمي وأمسح وجهي وأملص عيني، وأضع الحِذاء في أقدامي وإحساسي بأن الدُنيا تدور بي من كل ناحية، مع فقد الإتزان والدوخة والزغللة، ووسط كل ذلك وجدتني جُنبًا وجب الإستحمام لجسدي، فقد حلمت حلمًا مُمتعًا، أنني أواقع أُنثى أحببتها طوال عُمري.. ومع هذه المُتعة المؤقتة وجدت أن المبيت في قسم بولاق المُلاصق لهذه الليلة أرحم ألف مرة من ضيافتي عند بني جلدتي - سامحهم الله- ؛ غادرت على الفور دون أن يستيقظ أحد أو حتى أوقظهم إستئذانًا بالخروج، فلا ضيافة جاءت ولا واجب يستحقون عليه سوى تركهم بهذه الطريقة التي أثبتت الأيام فيما بعد أنهم كانوا يُريدونها وينتظرونها على حافة ترعة الزُمر التي تفصل عزبة أبي "قتادة" عن مُحيط جامعة القاهرة، بينهُمَا شريط قطار السكك الحديديّة المُتجه إلى الصعيد من القاهرة والعكس، يجلجل صوته كل حين فيهدج المنطقة كُلها بأن الحياة فيها أمل طالما النبض موجود..

أحمل كلتا حقيبتي بيدي وعلى كتفي، وأسير صوب شارع الهرم عند نقطة "نصر الدين" المسافة ليست بعيدة فهي لا تُجاوز الاثنان من الكيلومترات؛ ولكنها بالنسبة لي تُساوي خمسين كيلو! تمر سيارات الركوب من جانبي، فتُناديني فأفعل فعل الغفلة، أو التعلُّل بأن مكاني قريب.

إنتهيت من عزبة "أبو قتادة"، ومررت بمقام سيدي أبي قتادة الصحابي الجليل، فزودت نفسي بفاتحة القرآن داعيًا ربي في بقعة الصحابي الطاهرة وأنا على مقربة؛ أن يبدل الله حالي، ويعوضني، وأن يكون القادم أفضل، ثُم ضحكت من نفسي وسخرت؛ أنني أسير جُنُبًا؛ ولكن عناية الله ترعاني، والأمر فوق طاقتي وقدراتي..

عند نقطة إلتقاء شارع الهرم بجسر ترعة الزمر، إنزويت يمينًا على رصيف الشارع العتيق حتى وصلت إلى بوابة مدرسة سوزان مُبارك الإعداديّة بنات، بجوار مبنى المحافظة، وجدت عامل المدرسة الذي استأذنته في السماح لي بُمقابلة صديقي وأخي "جمال" هو يعمل مُدرس هُنا وكان معي في الجامعة وبلدياتي مُتأصل العُنصرين وكريم المحيَّا ..لم يمضِ زمن الرُبع ساعة وإذ بهِ يأتيني مُرحبًا ومُحييًا كعادته، ويمنحني قُبلاته ويدس في يدي عشرة جنيهات، ويمنحني مُفتاح شقة خاله بالعُمرانيّة التي كان يستقل السكن فيها، ونحنُ طُلاب إلى أن عمل مُعلمًا..

جمال تم تعيينه مُعلمًا كآخر دُفعة درعميّة يأتيها خطاب القوى العاملة على المنزل، حيثُ تخرج عام ١٩٩٢ ، كما تلته دُفعتين كان الخريج يتخير بين جنوب الصعيد (أسوان – قنا) أو مُحافظات القنال وسيناء ومطروح (مناطق نائية) ثُم صار أمر تعيين المدرسين الدراعمة بالمُسابقات تارة وبالحصة تارة أُخرى..

عبرت شارع الهرم بمُحاذاة جسر ترعة الزُمر إلى العُمرانيّة الغربيّة، فمررت بفيلا الكابتن لطيف الذي كان يجلس في إحدى شُرفتاها وهي تبعُد عن شارع الهرم مائتي متر فقط.

كان يجلس ويحتسي الشاي، حييته فحياني ملوحًا، ثُم مضيت حتى شارع صبحي المُحامي بقارعة مخازن شركة "ماتوسيان" فانحدرت يمينًا بالشارع حتى وصلت شارع زهران الذي يليه، ثُم صعدت سلم العُمارة بعد أن اشتريت بعض الزاد (جُبن – حلاوة – عيش – فاكهة)، فصرفت الجنيه الذي كان بحوزتي، وتبقى العشرة التي منحني إياها "جمال" فتحت باب الشقة؛ فخلعت ملابسي وحصلت على دش ساخن وارتديت ملابس أُخرى ونقعت ملابسي المُبتلة بالجنابة في حوض بلاستيك مُتنقل وأديت الصلاة وما فاتني، وتنفست الصعداء وأحسست أن النوم فارق عينيَّ وعناء الهم والحُزن فارقاني، وبدأ لون وجهي يعود رويدًا رويدًا، ثُم رحت في نوم عميق وسط تخيُلاتي الواسعة أن الطريق بدأ ولابد من المسير والخير قادم..

تناولت طعامي والشاي المشروب المُفضل، ولم أدرِ بنفسي حتى عودة "جمال" العاشرة مساءً؛ ليوقظني لتناول العشاء، فقد عاد لتوه بعد عمله ومجموعات طلابه، ومشاويره الخاصة، حيثُ كان يعمل في سمسرة الشُقق بالإيجار أو التمليك، وهو ما يُدر عليه دخلًا معقولًا..

طعم الفراخ مُغري ورائحته شهية، والسلطات والجرجير والتّفاح الأمريكاني الأحمر، كل ذلك جعلني أولد من جديد ، وسط نهمي بالطعام طلب مني "جمال" أن أكون بالشقة كيفما أشاء إلى ما أُريد، يوم، شهر، سنة، فلا غضاضة أبدًا، وأن ما احتاجه من نقود سيوفره لي -إن شاء الله-، لم استغرب ولم أتعجب فهذه هي طبيعة صديقي "جمال" زميل الصبا والثانوي، فقد خرجت به من دُنيايا وصحبه "محمود" الذي صار أكاديميًا وناقدًا كبيرًا فيما بعد!

وبعد يومين أو ثلاثة وأثناء تفقُّدي شوارع العُمرانيّة نسيت عملي بالجريدة اليوميّة، فقد رجعت لها بعد الوقف بفضل وكيل الحزب وأمين الشباب القوي القادر على ما أوكل إليه..

- أنتَ عاوز ترجع عملك بالجريدة يا أحمد؟
- طبعًا يا ريس دي أُمنيتي، بقالي أربعة شهور محروم من العمل ومن المُكافأة كمان، والتي كانت تُغطي بعض شئوني الخاصة..
- طيب، يوم السبت لما تلاقي رئيس قسم الحوادث وهو في نفس الوقت مُدير تحرير العدد الأسبوعي كاد أن يفرغ من عمله بلغني..

وحدث بالفعل ما كان يطلُبه أمين الشباب العام، فهرعت إليه بالخبر الذي كان يطلُبه، فطلب مني أن آتي له بأحد المُحررين الشباب بأنه يطلُبه في خبر أو مقال، ففعلت ذلك وأثبت له بأحدهم ..أعطاه ورقة صغيرة مفادها "قهوتك في مكتبي" فقام المُحرر بتوصيلها لمُدير التحرير، كما طلب مني في نفس الوقت أن أختفي تمامًا عن الأنظار في زاوية ضيقة في القاعة لأُشاهد المُباراة عن بُعد، ففعلت.. بعد وقت قصير جدًا سمعت وقع أقدام مُدير التحرير تدُب على أرضيّة القاعة وهُما في "شبشب" بلاستيك، يرتاح فيه لطول عناء العمل، ودخل على الأمين بالفعل، وبمرور ساعتين لم أسمع أي حوار أو نقاش، ثُم فوجئت بتكسير وطرق وتخبيط ومُحاولات هروب وارتفاع أصوات إلى درجة المُشادة والشجار، ثُم يهدأ الأمر ويعود من جديد، وأنا أتمنى أن يمر الأمر على خير دون إراقة دماء، أمين الشباب عنيف وقوي البنية وكذلك مُدير التحرير.. وبمُضي ساعة أُخرى دق جرس حُجرة المكتب في القاعة، وإذ بالسكرتيرة تقوم بالدخول، ثُم تخرج وتُناديني أو تدعوني للقاء..

دخلت المكتب وإذا بمُدير التحرير ورئيس قسم الحوادث يتصبب منه العرق ويجلس هامدًا على أريكة أمام مكتب الأمين، وكأنه خارج من معركة انهزم فيها وقبل النتيجة طواعية وهو في أسعد لحظاته،

والأمين كطبعه قوي البُنيان لا آثار عرق على وجهه أو حتى إجهاد، فوقفت مُتسمِّر الأقدام؛ ولكني مُطمئن البال، فعالجني الأمين **قائلًا**:

"كرم أخلاق الأُستاذ أُسامة، كما تعودنا منه قِبل رجوعك لعملك بالجريدة، ولولاه بعد الله ما كُنت ستعود لعملك" فتمتم أسامة بتأكيد الكلام، هُنا طلب الأمين أن أسلِّم عليه مُصافحًا وكأن شيئًا لم يكن، ففعلت أكثر من ذلك مُتحصنًا له مُحاولًا تقبيل رأسه؛ ولكنه رفض حتى لا يشيل وزر ذنبي..

الأمر الثاني أن أعمل في قسم الحوادث مُحررًا وينشر لي عشر أخبار حوادث باسمي حتى يطمئن الجميع لرضاء الأُستاذ "أُسامة" عنّي، وبعدها يحق لي العمل في أي قسم أختاره، وكانت رغبتي في قسم المُحافظات كبيرة لقُربي من رئيس ، وهو في نفس الوقت رئيس تحرير جريدة الفلاح لسان حال الحزب الزراعيّة كمركزيّة..

طرتُ فرحًا بعد هذا اللقاء، وفي اليوم الثاني دلفت إلى عملي بهمة وثقة، أُقبل عليه كصائم رمضان حين انطلاق مدفع الإفطار ، وسُرعان ما قُمت بعمل تحقيق صحفي عن مخاطر مزلقان كوبري.

"الخشب" الذي يحصُد الأرواح يوميًّا جراء اتساعه ومرور القطارات وإلحاق ورشة الجرارات به، فنشر رئيس الصفحة وأُشير إليه بالصفحة الأولى ومُوقع باسمي.

هذه شهادة ميلاد جديدة في حياة الصحفي القادم من الأرياف يبحث عن عمله وأمله.

وفي المساء ليوم الإثنين إنعقد اجتماع أمانة الشباب الأسبوعي والذي كُنت عضوًا فيه، وبعد الانتهاء منه العاشرة مساءً دعاني الأمين لمُرافقته بسيارته؛ لكي يصل بي إلى أقرب نُقطة من محل سكني ببولاق

الدكرور .وفي الطريق الذي امتد نصف ساعة بالسيارة المرسيدس العتيقة، قصّ عليَّ الأمين حكاية أغرب من الخيال؟

- عارف يا أحمد بالخبر الذي نشرته في يونيه الماضي، قلبت الدُنيا ولم تقعدها دون أن تدري، وكان ينتظرك قرار اعتقال بجريرة أُخرى حتى تهدأ النفوس وتضيع ككبش فداء، يأكل لحمك من يُريد ويحرقك من يُريد؟
- إزاي يا ريس، حضرتك قلقتني؟
- الخبر المنشور عن سيارة مُدير الأمن صحيح مائة في المائة، وبنشرك الخبر تم تحريك كل الأمور بعد صدور الجريدة عدد الجُمعة في ليلة تسبقها بالطبع، وكانت الأعداد الأولى تُحرك بها قطار الصعيد في التاسعة مساءً وتم توزيع نُسخ القاهرة، ولم تستطع الأجهزة مصادرة الجريدة أو وقفها بحذف الخبر، وجرأة رئيس قسم الأخبار الأُستاذ "مجدي" أتاحت له النشر ولم يطلع رئيس التحرير على الصفحة الأولى كعادته لارتباطه بموعد في سفارة العراق مُتحدثًا في ندوة..

وأنتَ لا تعلم يا أحمد أن رئيس التحرير بلديات مُدير الأمن، وكذلك رئيس قسم الحوادث؛ ولكن قُرابة رئيس قسم الحوادث أكبر، تصل إلى جذور العائلة في الاسم السادس ، وهو الذي رشحه لرئيس التحرير لكي يأخذ مكانه مهمة، كما أن زوجة الأُستاذ "أُسامة" مُحررة شئون الوزارة في صحيفة قوميّة يوميّة، يعني ببساطة يا أحمد ضربت كرسي في الكلوب وقتلت أربعة عصافير بحجر واحد، وعندما علم رئيس الحزب بالواقعة مساء نفس الليلة، توعد أي مسئول أن يقترب من المُحرر بأي سوء فالأمر سيصل إلى الريس نفسه، كما أن قرار إقالة رئيس التحرير وقعه ووضعه في درج مكتبه! وهو لا يعرفك يا أحمد شخصيًّا ولكنه موقف بطولي تعود عليه في حياته مُنذ اشتراكه في ثورة يوليو.

استطاع رئيس التحرير أن يتسلق إلى الوزير، وكذلك الإعلام و التنمية الإداريّة، ويعقد معهم صفقة علاقات أتت أُكلها في الحين! واكتفى بأن أوقفك عن العمل حتى لا يُساء الظن به عند مُدير الأمن.

- بس يا ريس رئيس التحرير بتاعنا راجل مُناضل، ومُدافع عن الحقوق، وخطيب مفوه، ومُنحاز إلى الفقراء ومحدودي الدخل، والقاعدة العريضة من البُسطاء؟
- ده بقى يا أحمد ما نجح في أن يصل به إلى البسطاء من أمثالك، مع أنه غير ذلك تمامًا.

انتهازي، وصولي، مصلحجي، يعرف من أين تؤكل الكتف؛ شاب طموح لم يصل الأربعين حتى الآن ويسكُن في أبراج "الأغاخان" ويعمل مُراسل، ويرأس تحرير صحيفة يوميّة مُعارضة في مصر، ويُناطح الكبار، ويلعب مع سُفراء الدول ويصل به الأمر إلى الحديث عن القوميّة العربيّة .

إذا كان هو كذلك مُعارض قوي، فكيف يُرافق الوزراء في رحلاته إلى دول عديدة ويُناطح الكبار من رؤساء التحرير الذين يعتبرون من أعمدة النظام ولا يسمحون بمتسلل واحد يشق صفهم!!

- طيب إزاي يا ريس هو وصل إلى طائرة الوزير؟
- وزير يا سيدي بقى صديقه من يوم خبرك الذي نُشر، فتم بناء عقد الصداقة وحسن الإتصال.
- يااااااه يا ريس، معقول كل ده!! يااااااه
- أنتَ فاكر يا أحمد قبول "أُسامة" رجوعك لعملك بسهولة؟
- إزاي يا ريس، ما هو وافق طلب حضرتك وانتهى الموضوع!؟
- لأ يا أحمد، لم يكن يوافق إلا بعد أن كدت أطلب له مكتب وزير الإعلام، وأخرجت مُسدسي المُرخص وهددته إن لم يوافق سأقتله، ثُم ألقي به من الطابق الخامس وأسلم نفسي للعدالة بعد

مؤتمر صحفي عالمي اكشف فيه كل مُلابسات الموضوع، وأحبس فيه الجميع وتُغلق فيه الجريدة اليوميّة، ويتم تسريح الكل بالعودة إلى أعمالهم في المحلات وعلى سيارات الأُجرة**!**

- معقول يا ريس؟**!**
- مش معقول ليه **!!** رئيس التحرير أتى بهم جميعًا من أعمال لا صلة لها بالمهنة بعد أن عاش بهم شهورًا في مُحاولة تجريب صحيفة يوميّة حزبيّة أُخرى لم يُكتب لها النجاح، فقبل فكرة حزبنا بمبلغ ٤٠٠ ألف جنيه فقط كي يظل وعده لعدد ٦٥ مُحررًا عملوا في أعمال غير مهنيَّة؛ بل مهينة من أجل الصرف على أسرهم**!!**
- نعم يا ريس نعم، وحتى حينما انفجرت أنبوبة الغاز في شقة مفروش بالدقي فمات اثنان ونجا اثنان بحروق، نصب لهم سرادق العزاء ورعى أسرهم وأحوالهم حتى يُقال عنه أنه مُتمسك بأولاده، وهذه حقيقة يُحاول أن يبرزها ويوجد لديه شيء إنساني من داخله؛ لأنه نشأ في أقاصى البلاد ، وسط عائلة مدقعة في الفقر لا تملك سوى بيت ريفي مُتهدم، وعدد قراريط ، لا يقوتون بقرة حمراء اللون، ومعها حمار يحمل لها البرسيم والعُشب**!!**

ومع ذلك هو لا يتبرأ من ذلك؛ بل يعلنه ويباهي به أمام الجميع: "أنا الفقير ابن الفقراء، لم يهرب أبي برؤوس أموال البنوك خارج البلاد، ولم تكن أُمي تبيع المُخدرات؛ لإفساد الشباب"

- كما الأمر وصل بهِ إلى مُناطحة وزير حالي مهم من الحكومة، ويترشح ضدَّه في عقر داره بإيعاز من مُعاونيه على ذلك، وهم في نفس الوقت كارهين لهذا الوزير، وهي لُعبة توازن قومي يجريها أركان الحكومة، وإن نجح الوزير وفاز بالمقعد؛ ولكنه تم إقالته من منصبه الوزاري عقب أول تعديل بتلفيق تهمة له مؤداها

أنه يدعم المُعارضة المحظورة في وجه الحكومة بُمناصرة مُعارض على حساب مرشح الحزب، وتم التنكيل به وإحراج موقفه حتى في البرلمان..

- كفاية يا ريس كفاية، دي لعبة كبيييرة قوي عليَّ، وأنا مثل الأخرس في الزفة وأمضي حيثُ لا أعلم، وقفتك كتير يا ريس في الشارع فقد وصلنا ولم ينتهي الكلام فوقفنا في الشارع نكمل الحكاية العجيبة..
- تصبح على خير يا أحمد، خد بالك من نفسك، أنتَ كويس؛ ولكن مُندفع، أنتَ العقل وزميلك الآخر هو العضلات، وستشقى بعلمك وبعملك وستأتيك الثمرة مُتأخرة؛ ولكن حتمًا ستأتي..

هكذا دائمًا ذاكرتي مُحملة بالأحداث لا تُغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصتها، وعليَّ أن أفرغ ذلك وأتحدث مع رئيس قسم المُحافظات الذي يُحبني بصدق ويحنو عليَّ دائمًا وعندما أُوقفت عن العمل بالجريدة اليوميَّة، دعاني إلى العمل بجريدته الشهريّة الزراعيّة.

في أحد المحال التجاريّة يوجد تليفون المُكالمة منه ثلاث دقائق بخمسين قرشًا، فأدرت القرص لأُحادثه في مسكنه بمدينة ١٥ مايو، والتي أنشأها الرئيس السادات جنوبي حلوان وأطلق عليها هذا الاسم تيمُنًا بيوم القبض على مراكز القوى، وهو ما أسماه ثورة التصحيح.

بمُجرد رنين الهاتف ردّ عليَّ من الطرف الآخر رئيس قسم المُحافظات وما أن تبين له نبرات صوتي من أول حرفين، عاجلني بصوت مُرتفع :

أنتَ فين يا أحمد؟ أنا بدور عليك بقالي يومين، وحينما اتصلت بك على هاتف أقاربك قوبلت بعاصفة من التجاهل والخشونة، فعلمت أنك اختلفت وغادرت بمُشكلة .والحمدُ لله أنك اتصلت فأنا أريدك غدًا في مؤسسة اليوم لتجهيز صحيفة جديدة باسم" أخباردمنهور" وأبحث عنك لتتولى موقع سكرتير التحرير والمُتابعة.

هللت من الفرح وكدت أرقص في الشارع وصوتي يرتفع إلى درجة إزعاج صاحب المتجر وزبائنه، وسرعان ما عدت إلى صوابي وأكدت له :

غدًا سأكون في المؤسسة من الفجر..

فردني وهو كذلك يكفي أن تلقاني العاشرة صباحًا، فقبل ذلك لن يصل أحد ..أغلقت الهاتف وينتابني أنني على أعتاب أيام ثمان بعدما عانيت الأيام العجاف، تلك عناية الله وتوفيقه والحمدُ لله أولًا وأخيرًا، بتُّ ليلتي وسارعت صباحي و وصلت شارع الصحافة، فجلست على المقهى المجاور وهو مقهى صغير كان يجلس عليه كبار كتاب اليوم يحتسون الغليون والقهوة؛ راحة من عناء العمل ثُم يعودون لاستئناف مسيرتهم، تناولت الشاي ولم أكن مرتاد التدخين حتى هذا التاريخ، وسرعان ما جاء رئيس تحرير أخبار دمنهور يُرافقه رجل كهل ضخم مُثقف اجتماعي وجماهيري يبدو أنه كان من شباب الطليعة في عهد عبد الناصر، فأمطرني بقصيدة ترحيب بعدما علم أنني سأحمل عنهم عناء المُتابعة، أيضًا معهم شاب آخر يحمل حقيبة بها أوراق وأموال للصرف على التجهيز والطباعة، فطلب منه رئيس التحرير منّحي عشرين جنيهًا لمُتابعة العمل، وعشرين جنيهًا أُخرى بعد ساعتين لوصولي مشوار خاص بالعمل، وعندما فرغنا من التجهيز في الثامنة مساءً وأنا في غاية السعادة، أشم رائحة الأحبار ومُعاينة العُمال والحركة بين الأجهزة عبر الدور الرابع، أحسست أنني عُدت للحياة من مشارف الموت، وعلمت أن الطباعة ستكون في مُنتصف الليل، فانصرف رئيس التحرير ومُرافقوه لأن عناء التعب نال منهم وطلبوا منّي المكوث لمُتابعة الطباعة مُنتصف الليل ببدل سهرة عشرون جنيهًا، وإن أردت مُرافقة المطبوع إلى مدينة دمنهور فأحصل على أجر السيارة سبعة ركاب في ستة جنيهات، وأحمل على شبكتها النسخ المطبوعة، ولي بدل سفر عشرين جنيه تالية..

في يوم واحد وجدت في جيبي ثمانين جنيهًا، تخصني لم أصرف منهم مليمًا واحدًا، علاوة على الغداء الفاخر في مطعم كوارع مُميز وسط البلد وعشاء خفيف مساءً، وطوال اليوم أرتاد المقاهي بين العمل للراحة، وأنا في غاية السعادة، أيضًا معي اثنان وأربعون جنيه أجرة السيارة والتي قُمت بإحضارها من موقف أحمد حلمي المجاور لمحطة قطار رمسيس، فوجدت فيها ثلاثة ركاب، فعرضت على السائق أن أدفع أجر الأربعة الباقين على أن يأتي معي لمؤسسة اليوم ونحمل المطبوع ونمضي، فوافق الركاب حتى لا يبيتون إلى الصباح دون تحميل السيارة البيجو ذات السبعة رُكاب.. هُنا وفرت ١٨ جنيه أخرى فبلغ مجموع ما في جيبي قُرابة المائة جنيه .. يااااااااه إنها لثروة عظيمة في يوم لا يُنسى، الخامس والعشرون من سبتمبر سنة ١٩٩٥ .

تحركت بنا السيارة الثانية صباحًا ووصلت مدينة دمنهور في الرابعة تمامًا، ساعتين في مسافة **(١٦٠)** كم بالتمام والكمال، ومن حُسن حظي أن موقف السيارات كان بجوار مقر الجريدة، وهو عبارة عن شقة إسكان شعبي وفرتها المُحافظة للحزب مُؤخرًا..

لم يكن هُناك أحد بالفعل؛ فقُمت بإنزال رُبط النسح ذات المائتين، محبوكة الربط ووضعتهم بالتساوي في مدخل العمارة على هيئة سرير وربطة أُخرى وسادة للرأس، ونمت نومًا هنيئًا لأول مرة مُنذ أسبوع وأحسست أن الدُنيا مُقبلة، فأنا في مكان لا يطردني منه أحد أو يزيحني منه، فكأن الدُنيا حيزت لي وما فيها وصرت في ذلك حتى أيقظني مُدير الإعلانات الأخ أُسامة في السادسة صباحًا وكله أسى وحُزن على أنني نمت بهذه الطريقة والتي اعتبرها مهينة لا تليق بي..

****

الفصل الثالث

٢٥-٩-١٩٩٥

"منحة المحنة"

في الثانية عشرة ظُهرًا اصطفَّ المحررون حول مائدة مُستطيلة، وكان عددهُم قُرابة العشرين، رأس الإجتماع رئيس التحرير وعن يمينه مُستشار التحرير وعن شماله المُشرف العام، وقد أجلسوني بجوارهم وهُم يحتفلون بحضوري ويُشيدون بأنني حملت نُسخ العدد الصادر اليوم من القاهرة فجرًا، ولم يكن مقر الجريدة مفتوحًا، فنمت في بهو العمارة، مُعتبرًا ذلك فضلًا من الله ونعمة أنعمها عليّ ببركة دُعاء الوالدين والصالحين..

ولكنهُم اعتبروا ذلك من المواقف البطوليّة التي تستحق الإشادة، فصفقوا لي جميعًا ولقبوني (بطل التحرير) وهو رمز لما قُمت به، فحاولت أن أشكرهم على هذه الفرصة وأنني ما تمنيت بخير أكبر من هذا، فهم الذين يستحقون الشكر والتقدير، وأن ما حدث معي يستحق أن يُوصف بمنحة المحنة، فاعتبروا ذلك من قُبيل تواضع العُلماء وإنكار الذات والإخلص في العمل.

وقد أسند لي رئيس التحرير مهمة جمع المادة الصحفيّة من المُحررين والإعلانات من المندوبين، ووعدهم أن كل المجموع سيتم فحصه ويُفرز غثه من ثمينه وسيراعى مصلحة المُحرر..

انتهى الإجتماع وبدأ يتفرق شمل المجموع، وبدأ إحساس الغُربة يتخلل أوصالي، وقد أجمع المشرف العام على حجز حُجرة لي بفُندق الربيع بشارع الصاغة قلب مدينة دمنهور العامر، ودعاني إلى الذهاب للراحة إلى هُناك، فأكدت له أنني في راحة تامة ما بعدها راحة مُنذ أن

وطأت أقدامي أرض عاصمة مُحافظة البحيرة، ثاني أكبر مُحافظة في مصر بعد الشرقيّة.

ودَّعني رئيس التحرير بحميميّة شديدة، وشدّ على وثاقي وهو متوجه إلى مركز شبراخيت بلده التي فيها أهله، ووفر لي كل سُبل الراحة الماديّة والمعنويّة، يقوم بها المشرف العام حال وجودي في دمنهور العامرة..

انصرف الجميع وجلست وحدي بعد أن ارتديت (ترننق) مستورد الخامة، جاء لي من محلات بيع الملابس مع قميص وبنطلون وحِذاء في حقيبة فارهة، هديّة لمشقة مجهودي، فارتديت الترننق، ووضعت أقدامي في شبشب جلد كان في الحقيبة، وأطلقت لمقعد رئيس التحرير العنان، ورحت في نوبة فرح لم أذقها قبل ذلك ولا بعده..

كان التاسع عشر من مارس عام ١٩٧٠ يوم مولدي عقب صلاة الجُمعة بإحدى قُرى مُحافظة سوهاج، وكنت الولد الوحيد على ست بنات، فتمتعت بالعناية وسبل الراحة والهناء من الجميع، سواء الأقارب أو الجيران وحتى الأهل.

قرر والدي أمر تعليمي بذهابي إلى المدرسة، رغم أنه لم يلق من تعليمه حتى أوليته، فقد أخذ شقيقه الأكبر شهادة ميلاده ودخل بها المدرسة بعد إخفاقه بشهادته الأصليّة وكِبر سنه.

وفي الثلاثينات من القرن العشرين حمل شقيق جدي على دابته شقيق والدي الأكبر ووصل إلى الباشا الشندويلي حاكم نصف مُديريّة جرجا؛ لكي يقوم بإدخال عمي المدرسة ويتعلم بالمجان فيما يصرف الباشا على كل من يُريد التعلم على نفقته؛ إسهامًا منه في بزوغ طبقة مُتعلمة يُجافي بها الأُميّة.

جراء هذه العُقدة التي انتابت والدي قرر الحرص على أن أتعلم مهما كلفه الأمر، فكان يحملني على دابته كل يوم مسافة ثلاثة كيلومترات حتى أقرب مدرسة إبتدائيّة أُطلق عليها اسم الشاعر "محمد عبد المُطلب" شاعر بلدنا الكبير..

وواصلت تعليمي وأثبتت تفوقي وحصلت على الشهادة الإبتدائيّة عام ١٩٨٢ مُحتلًا المرتبة الثالثة على الإدارة التعليميّة بمجموع ٩٥٪ ، سُرَّ والدي في هذا اليوم ووزع سجائر المارلبورو والروزمان على المُهنئين، وقررت والدتي أن تعقد وليمة للجيران؛ ابتهاجًا بهذا اليوم العظيم، وجاءت الإعداديّة والثانويّة مراحل سريعة بمسافة ثلث مسافة المدرسة الابتدائيّة، وكنت الأشهر بين زملائي، أتمتع بشهرة لتفرسي في العربيّة.

وفي يوم من أيام يوليو ١٩٨٨ علمت من نشرة السادسة بالتلفزيون المصري حقيقة أنني رشحت للدراسة بكُليّة "دار العلوم" بجامعة القاهرة وكان هذا هو يوم السبت، يوم اللحمة والمرق والفطير، عيدنا الأسبوعي الذي ينعقد في تمام السادسة والنصف مساءً عقِب صلاة المغرب، فكان يومًا عبوسًا قمطريرًا..

بكيت فيه أشد البُكاء وعلا صوتي إلى درجة النحيب، على أنني سأُفارق أهلي طيلة أيام دراستي بسنواتها الأربع، وهذا لم يحدث من قبل، وأن حياتي الريفيّة فيما يقوم عليه والدي بالزراعة من إرث وشراء يكفينا مؤونة الحياة والحياة الرغدة التي لا تشكو الفاقة أبدًا..

كان أبي كريمًا وكان مُتدينًا، يجمع المُصلين حوله في ساحة الماكينة الزراعيّة، فيؤمهم للصلاة خاصة في رمضان المُعظم، ويتجلى في صلاة التراويح، ولا ينسى أن يأخُذ معه منديلًا من القُماش، يحمل في طياته كيلو من البلح من بُستان نخلنا بطرح الترعة السوهاجيّة، إرثًا من جدي الذي كان يحوز فدانين ومائتي نخلة من أجود البلح.

بعد أن يفرغ المصلون من صلوات التراويح بإمامة والدي، يقومون بطرح المنديل المعلق في (الزّنار) وهو باب المصليّة معقود من عيدان الذُرة العويجة مفتول بحبل من ليف النخل.

وتدور الحكايات والسمر الليلي العذب والنكات وذكر صالح أعمال الرجال، وذكر محاسن ذريات الصالحين المُتعلمين، وكيف أصبح ابن البلكي طالبًا بكُليّة البوليس، ويرمقونه في عودته وترحاله وكيف يُجيب والده عن أسئلة المُستطلعين بأن ولده قدامه لماااااااااا يوصل صول ، والصول في بلدنا كان الرتبة البوليسيّة الأكبر، وكان يرأس نقطة الشرطة، وله حصان مُخصص، وغفير يقوم بقيادته مُترجلًا، يخاف المارة منه فينزوون من الطرقات حتى يمُر، ثُم يُتابعونه من خلفه خلسة، وتقوم النساء العواجز بالدُعاء لأحفادهم أو الصغار عامة بأن يصيروا يومًا في منزلة عالية كمنزلة حضرة الصول.

وجاء يومًا لكي يقبض على أحد أعمامي في الأربعينات بتهُمة سرقة بقرة آخرين، وتم اقتياده بعد تكبيله بالحديد، فما كان من شقيقته إلَّا أن زغردت بكل قوتها وهي تهتف :أخويا حرامي ، والحرامي في الأربعينيات كان يرمز له بقريتنا أنه جدع وقوي، مُهاب الجانب، فخر القبيلة، فتخشاه القبائل الأُخرى..

ويتحدث المصلون وأنا جالس في طرف، قصى دون غيري من الأطفال في سنيهم الأولى بدعوى أننى الوحيد الذي تتعلق عليه آمال الأُسرة.

يذكرون أن "القنيشي" ذهب إلى القاهرة؛ لزيارة ولده وكيل النيابة الذي يسكن مصر الجديدة، وكيف عوملت زيارته التي شقى فيها من الكعك والفايش وكيف أن أحفاده ربطوا الفايش بالخيط وأخذوا يجرون به ويلعبون من جانب التسلية، وكيف عاملته زوجة ابنه القاهريّة بطبيعتها المُتمدنة وطيب يدها وحلاوة ردودها (حاضر – نعم – تؤمر

ـتمام ــ أوامرك يا عمي) ، وهي مُصطلحات لم يكن القروي يعلمها ولم تكن موجودة في قاموسه، فلا يستطيع أحد أن يُنادي زوجه باسمها قط، ويكفي بالمُناداة (يا بت) أو باسم ابنها الأكبر، وفي حالة تأخرها في الرد ينهال عليها بعصى غليظة من الخشب أو المدرة، وقد يصل الأمر إلى ضربها المُبرح بـ (كرب النورج) وهو عود من خشب النبق أقصر من عود المحراث البلدي، وعندما يعلم والد الزوجة ما حدث يقوم بزيارتها ويطلب من زوجها قتلها في مُحاولة عدم طاعتها وعليه أن يقوم بدفنها..

وهكذا كانت تسير القرية في الربع الثالث وما قبله من القرن العشرين، بدأت تخف حدتها رويدًا رويداً.. كان أبي -رحمه الله- يقصُّ عليَّ قصص ثورة يوليو المجيدة، ويُعتبر عبد الناصر رسول من عند الله؛ كتابه الميثاق، وهو لا يُسأل عمّا يفعل، وأن كل شيء ينطق باسم عبد الناصر، فالسيور الجلديّة التي تربط (طنبور) المياه (بحدافة) ماكينة إخراج المياه السولاريّة موصول في شكل دائري بمسامير قويّة، عندما تلتحم مع الطنبور تعطي صوتًا فيقول والدي : تأمل يا أحمد ماذا يقول الصوت؟

قُلت : وماذا يقول؟

قال : يقول نااااصر، نااااصر، نااااصر.. وقد وصل الأمر إلى حدِّ الأسطورة، بأن عبد الناصر له جناحان يطير بهما ليلًا ليتفقد أحوال الرعيّة ويطمئن عليهم، وقد يترك لهم طعامًا أو نقودًا ولا يراه أحد سوى العارفين بالله المكشوف عنهم الحُجُب.

وحينما جاء عبد الناصر إلى الصعيد في سنوات الثورة الأولى ركب القطار الذي توقف به في كل محطة ذات رصيف، فلما جاء الدور عند محطة عمرو باشا "وهو اسم والد وزير خارجية مصر قُبيل ثورة يوليو" وتقع عند الكيلو ٤٠٠ تقريبًا من القاهرة ــ أسوان، توقف قطاره

فيها قبل أن يصل محطة المراغة بأربعة كيلومترات، تجمع الناس من كل حدب وصوب؛ لكي يحيوا الزعيم عبد الناصر الذي حرر المصريين من عبوديّة الملك والإنجليز، وأعلى سيادة القانون وحُبَّ الوطن، فمن الناس يومها من أُغمى عليه، ومنهم من قطع أوتاره ليُبايع الزعيم بدمائه، ومنهم من أراد ذبح طفله بركة بحلول عبد الناصر، الذي وقف على الرصيف وأمام جموع الحاضرين **قائلًا :**

الفاتحة لروح الشهيد الصاغ السايح العادلي على أن يغير اسم المحطة من عمرو باشا إلى محطة الشهيد السايح**..**

وقد استشهد هذا البطل في حرب ١٩٤٨ وهو طبيب ضابط مُقاتل كان يحمل رتبة الصاغ وكان طبيب عبد الناصر وغيره من الضباط**..**

هذا المشهد الروحاني الذي كان والدي يتلذذ بقصِّه عليّ كلما خلا بنا الوقت في (حش)البرسيم أو السهرة عبر الليالي القمريّة**.**

وكان السادات ونحنُ في فترة حكمه لا يتمتع بقبول جماهيري والكل ينتقده، ليس لعيب فيه إنما لأنه خلف عبد الناصر وتلا إعلان وفاته، فمن يخلف الزعيم ومن يقدر على إرث حبيب الملايين **!!**

لذلك لم يتمتع السادات طيلة حكمه بقدر من حبِّ الجماهير، لأنه صورة عبد الناصر لم تفارقه، حتى إن انتصار أكتوبر ٧٣ على إسرائيل، عدُّوه خطة حرب كانت مجهزة من عبد الناصر الذي كان مُستعدًا للحرب وللنصر المُبين؛ ولكن الله أختاره إلى جواره وبعثه في صورة روح تُحارب في ٧٣ ، منع السادات ذبح الحيوانات التي تدر لحومًا حمراء طيلة شهر أغسطس ١٩٨٠ ، وقد أصدر مرسومًا بقانون أن من يتم ضبطه مُتلبسًا بالذبح، تصادر أدواته ويتم تقييد حريته ستة شهور، وقد زاد المواطنون الأمر إلى حدِّ الأسطورة، بأن الحكومة استوردت جهازًا يمكنه في حالة الكشف على البطن أن يتبين ما بها من لحوم حمراء والتوقيت، يُعدم بعدها المواطن مُباشرة، وعادة أهل الريف

حُبُّ اللحوم الحمراء والإقبال عليها بشراهة، مما كان يخول إليهم الذبح خلسة وسط عيدان الذرة العويجة، ويقوم من بينهم أحد بدور الجزار بأدوات بدائيّة ويتم تقسيم اللحوم بالمُقاربة أقسامًا، وقد حدث يوم أن اشترك مجموعة من فلاحين بلدنا في ذبح خروف ضأن وتوزيعه بأنصباء مُعينة، كان بالطبع من نصيب الأثرياء –نوعًا- وحرم منه الفقراء؛ لخوفهم من ناحية، والناحية الأُخرى عدم مقدرتهم على ثمنه المغالي فيه، فقد وصل سعر الكيلو إلى جنيه مصري واحد، وهو رقم كبير على المواطنين عـام ١٩٨٠ .

عاشت القرية موزعة الأمزجة بين الفرح والحُزُن، ظهر ذلك في أعيُن الأطفال ووجوه الكبار، وعاد الفلاح الأجير عُقب صلاة العصر، فوجد زوجه وأمه وعِياله في حالة حزن حتى البُكاء، وقامت الجدة بإحضار ثمرة الذُرة العويجة (قنديل) ووضعت بعضًا في حلة نحاسيّة وأخذت توقد نيران (الكانون) وتوهم أحفادها بأنها تطهى القناديل التي ستصير بعد قليلٍ ديوكًا، يتم التهامها أفضل من اللحوم، وتارة أُخرى توهمهم بأن الحكومة ستحبس كل من تناول لحومًا حمراء وتبيته في المركز وتضربه بالكورباج حتى يقئ ما أكله؛ ولكن الأطفال تبكي لرؤية أولاد الجيران يضعون (المرقة) على أرغفة الخُبز فيبدو اللون الأحمر مدعاة لسيلان الريق.

قرر الفلاح الأجير أن كل القرية لابد أن يسودها جو واحد (حزن أم فرح) وأقسم برحمة جدِّه الذي عاش ومات ما انتعل حذاءً أنه سيفعل..

يحلو الطعام في وقت غروب الشمس، الكل يحدث له كُمُون في البيت حول آنية (الهمر) بتناول الطعام في لحظة واحدة، وقبل الغروب بقليل صرخ هذا الفلاح الأجير : يا أهل قريتي يا جيراني يا أصحابي إسمعوا واعوا : أنا شُفت بعيني الحكومة (لابده) عند كوبري نجع أبو قسط ووقت المغرب هيهجموا على بيوتنا، ومن يضبطون في بيته لحمة سيشنقونه على كوبري لكراعي أو على محطة طهطا جنب تمثال رفاعة، وتبقى فضيحة وموتة و(اجرس)..

خرجت نساء القرية بإيعاز من الرجال بإلقاء آنية (الهمر) التي بها اللحم والمرق برمتها في الترعة المُرَّة، وعادوا مُسرعين لإغلاق (السدِّية) على أوكارهم متلصصين من خلفها لسماعِ الأوامر الآتية..

نزل الفلاح الأجير إلى الترعة واصطاد بها ما استطاع من قطع اللحوم الحمراء ووضعها في (عِبه) بعد أن حزم وسطه بحبل من الليف، ثُم خرج وأعلن أنه قضى على لون المياه الذي احمر من المرق حتى يداري جريمة نجع المُرَّة، ودخل بيته وأكل هو و عِياله وعاشوا في فرح مكتوم كي لا يستمع إليهم أحد ويعلم ما بهم، فإنَّ البيوت من عيدان الذرة جيدة التوصيل للصوت، وفي صلاة العشاء علت نبرة الحكاية من مجرد نُصح وإرشاد إلى عناية الله وعناية الشيخ (عمر) وعناية الشيخ أحمد والشيخ شبن والشيخ شكيوى ومدد يا سيدي يا بهلول من الهِله والقُبيصات لحد سيدي أبو القاسم بطهطا، ولتتجه النساء غدًا إلى (الكحريته) ويتدحرجن، ابتهاجًا بنجاة أهل نجع المُرَّة من الإعدام شنقًا على محطة طهطا أو في ميدانها وتبقى موتة وفضايح، كيف يعلقون الرجل بدون ملابس ويقطعون ذكره ويعرونه والناس ينظرون، وتبقى فضيحة بجلاجل ويقطعوا رأسه بالسيف مرة ومرة، وممكن الواحد يخاف ويتبرز على نفسه ويعِر أهله ويتعايروا به.

في يوم من أيـام عام ١٩٦٠ قبض البوليس على مواطن من نجع الحِسك في منزله واقتادوه إلى نقطة الشرطة وأمطروه ضربًا وركلًا أمام أعيُن أهل قريته، ثار لهذا أولاده وأقاربه وأسروا في نفسهم حتى تجنبوا الفرصة لصول النقطة الذي كان يقود ويحوز دراجة ناريّة يمر بها على الترعة المُرَّة، فاصطاده أحد أنجال الرجل برصاصة فرد روسي، فأصابته في رأسه، فانقلب في الترعة بدرّاجة الناريّة وفارق الحياة في الحال.

توصلت الشرطة للقاتل وأُسرته الذين هربوا جميعًا في مزارع القصب، ولم يصل إليهم أحد، فقبضوا على النساء والأطفال وأودعوهم النقطة، علم المُطاردون في مزارع القصب بذلك فهجموا على النقطة ليلًا مُسلحين وأخرجوا ذويهم وهربوا بهم إلى الصحراء الغربيّة المعروفة بالجبل، وبات الثأر بين البوليس والأهالي، فلمع نجم" الخُط " الذي اشترى رشاشًا حزمه على صدره وأصبح يقتل كل من له يد مع البوليس سواء العُمدة أم شيخ الخُفراء ومشايخ البلد، حتى تعددت جرائمه وأصبح مطلوبًا للعدالة في أكثر من جريمة قتل بمجموع أحكام ستة إعدامات..

وكان يتلقى طعامه وشرابه ونقوده من أقارب يثق فيهم في جنح الظلام، وتم مسح شامل لزراعات القصب والأذرة العويجة من طهطا حتى حدود سوهاج المدينة، دون أن يعثر على عصابته أحد، وقيل أنهم كانوا يرونه ومن يراه يتركه حتى لا يثأر منه واستمر الحال على ذلك عامًا كامل، لُقب فيه الخُط بالخُط أو كما نقول الخِط .

ودارت حوله وحول عصابته الأقاويل والقصص والحكايات التي نسجت الخيال إلى أنه مطلوب من الرئيس "جمال عبد الناصر" نفسه، يود أن يراه فقط ويمنحه نوط الإمتياز لشجاعته، وتردد أنه يزور كبار البلاد ليلًا ويحصل منهم على أموال وذهب وطعام ثُم يقتلهم، وأحيانًا يحذرهم من الحديث عنه في أي جلسه فقد يصله الكلام..

وبعد عـام من المُعاناة لجأت الشُرطة إلى إخراج صديقه من المُعتقل (هدية) ؛ لكي يصل إليه وينهي حياته، وهو ما حدث بالفعل عندما خرج أخذ يبحث عنه حتى اهتدى إليه عند سفح الجبل نزة علي فوجده في حالة إعياء شديد بتسمم دمائه جراء إطلاق رصاص الشُرطة السام عليه وقد نجا؛ ولكنه أصيب وظلَّ يُعاني الإصابة.

-انتَ جيت يا هدية؟

-جيتلك يا حبيبي من آخر الدُنيا يا بطل الأبطال.

-ولكنك أتيت وأنا على مشارف الموت!

-لا تقلق يا صاحبي، سأُداويك بإذن الله.

وقد حقنه بحقنة مدسوسة من البوليس أدت إلى فقدانه الوعي، وتوجه إلى البوليس ليُخبرهم مكانه وأوهمه وذويه أنه ذاهب لإحضار الطبيب الخصوصي الذي يثق فيه على دابة حمراء سريعة الخُطى..

وعاد خلسة و وراءه البوليس في صورة أطباء ومُمرضات و أدوية، واستطاع بحيلته أن يُجرده من عصابته الفتاكة وقوامهم المائة مُقاتل من مطاريد الجبل، ويُبعدهم حتى يتمكن الأطباء من عملهم، ثُم قبضوا عليهم وهرب منهم من هرب فأطلقوا رصاص البوليس حول "الخِط" فغربلوه حتى ينتهوا منه ورفضوا نقله حتى لا يفيق فيقتلهم جميعًا لأن الأوامر صدرت بإحضاره حيًّا أو ميتًا.

وأمام أعين الناس وسط قُرى جهينه أوثقوا جثته تجُرها الحمير وهُم يلقون عليه الطوب اللبن ويُصفوه بالمجرم، حتى وصلوا به إلى الجبانة الكُبرى فواروه التراب بإهانة دون غسل ودون صلاة، وانتهت قصته التي استمرت عامًا وانتهى معه جمعُه وتفرقوا ، وفي غياهب الليل تسلل إليه أهله من المُتدينين وأخرجوا جثته وغسلوه بالماء من بئر الحاج يوسف، وكفنوه وصلوا عليه صلاة مودع ثُم دفنوه في قبر شرعي وقرأوا عليه ما تيسر من سور القرآن الكريم وآياته المُحكمات ١٩٦١.

وإنْ ظلَّ خياله شهورًا يُطارد الناس الذين يُشككون بأنه على قيد الحياة وأن البوليس قتل أحد رفاقه ولم يصلوا إليه، وبعد شهور انبرى الأمر وانتهى وأصبح الأمر برمته في خبر كان ..وهُناك حكاية لا ينساها أهل قريتي وهى سرقة البنك بالمراغة في يوم الثُلاثاء من أيام عام ٢٠٠١ وهو يوم سوق المدينة وقُراها..

تحركت الحكايات حول الحادث ونسج الخيال بيوتًا، ووزعت الشُرطة صورًا للمُشتبه فيهم علَّ أحد يعلم طُرق الوصول إليهم، فقامت سيدة أُميّة تتطلع إلى معرفة الأخبار بإيقاظ زوجها من نومه عشاءً؛ كي يخرج للقاء أهل القرية على قارعات الطُرق وأمام محلات البقالين وفي الغُرز المُستباحة للواردين؛ كي يشربوا الشاي والتعميرة زهاء قروش قليلة ويبتاعون الشاي والسُكر والصابون و (المدغة) فيكون سبيل ارتزاق، وأمام إلحاح الزوجة على زوجها الفلاح الأجير بفأسه الذي يعمل بنظام اليوميّة في عزيق الأرض من الحشائش، وحصدا للقمح والفول والذُرة وخلافه، يستيقظ فجرًا ويعود بعد العصر حاملًا في ذهابه فأسه ومنديلًا من القماش به رغيفين وقطعة من الجُبن، ويمنحه ملاك الأرض (نطالة) مياه وهي أكبر من القُلة وأصغر من (البلاص) لزوم تناوله المياه بطول اليوم، وتزويده بأكواب الشاي في اليوم ثلاث مرات.

وعندما يعود لبيته يحصل على دوش مياه من الحلة بالكوز! فيزيل ما علق بجسده من العرق والطين ويرتدي حلته النظيفة من جلابيّة ولاسة وصديري وسروال من (العبك) ويكونون من الكستور للدفء في أوقات الشتاء، وهو قُماش دأبت ثورة يوليو على توزيعه على بطاقات التموين، واستمر العمل به بعد حرب ٧٣ إلى نهاية عصر السادات، وكانت الحكومة تقوم بتوزيع قماش العبك في الصيف وهو قماش خفيف داكن اللون يميل إلى الصُفرة أشبه بأكفان الأموات، وأحيانًا على مواسم المدارس توزع قُماش أبيض مدراسي أي ناصع البياض وهو بمثابة دعم للمواطنين في القُرى النائيّة وفق بطاقة التموين مع السُكر والزيت والدقيق.

خرج الرجل الأجير في حلته البالية، الزاهية بالنسبة لحاله ليجلس بين الناس على الأرض فوق حصير من نبات الزرع (حلف) ويطلب شايًا بثلاثة قروش ويُدخن سيجارة لف من علبته الصفيح ملفوفة بورق بفرة المغربي..

فيجد لا صوت يعلو على صوت سرقة البنك والسطو عليه وأن المُخبرين قاموا بتوزيع صور المُجرمين على أهل القرية ولم يتعرف عليهم أحد، فطلب هذه الصور؛ كي يراها وسط ضحكات الجميع.

- أنتَ الذي لم تبرح القرية والكانون والفرن طوال حياتك، هل ستعرف صور المُجرمين؟!
- يا بهايم أنا سافرت كُل حتة ولفيت بلاد كتيرة لحد أبو تيح، كُنت باجني القُطن فيها، أنتُم بس مش حاسين بقيمتي!
- طيب قول مين دول يا فكيه و ورينا؟
- مش عارفين مين دول؟ !هههههههههه
- مش عارفين !!عرفنا أنتَ يا خفيف هههههههه
- دول أعز أصحابي، كُنت بقابلهم في مصر ونسهر مع بعض في شارع الهرم ونتسطل في البارات ونغرق بين الويسكي والبيرة والكينياء هههههههههههه .. وعرضوا عليَّ كتير أسرق معاهم بس أنا مراعي ربنا وباصلي هههههههه
- أنتَ سافرت مصر أمتى يا خفيف؟
- سافرت زمان من غير ما حد يعرف !!هو أنا لازم أطلعكُم على أسراري عشان تسرقوا بهايمي من الزريبة؟ أهو أنتم كل يوم بتسهروا وتروحوا بلاد ماحدش منكُم عرف الرجالة الجدعان دول ..أنا عرفتهم من أول بصةومُستعد أقولكُم على مكانهم دلوقتي وشايلين الفلوس فين؟
- هاااااا قول يا فكيه؟
- مش هقول غير براحتي، وأخذ يشمر جلبابه عن سرواله ويهرش في ساقيه ويحرك طاقيته ويعيد لف ملفحته الكسر..

ضرب الجميع كفًا بكفٍ ! كيف للخفيف اللي قاعد جنب المره بيدفى على الكانون وظهره للفُرن يعرف وإحنا اللي لفينا الدُنيا ماعرفناس يااااااااااه، ياما تحت السواهي دواهي ولا هيروح الشُرطة يبلغ ولا حاجة .. قال إيه علشان أصحابه و واكل معاهُم عيش وملح ! عيش وملح إيه يا عبيط؟ !قصده عيش وبيره و ويسكي، اللي بيتسطل من إزازة المياه الساقعة وأكل العجور ، قال حريف ويسكي ..عجبي..

ذهب الجميع إلى منازلهم قُرب العاشرة مساءً وناموا في بيوتهم؛ ولكن الفلاح الفكيه لم ينم، إذ بالمباحث تقبض عليه من عُقر داره ويعصبوا عينيه ويوثقوه ويحملوه في سيارات لأول مرة يراها أهل

البلد، حيثُ تُغطيها الأسلاك ولونها أخضر ويقودها ضباط يرتدون الملابس السوداء يحرسهم عساكر وأفراد شُرطة مُسلحين بالعُصيّ السوداء والبنادق الآلية والرشاشات، وكأنهم يقبضون على سبع الليل **!!** وفي مبنى المباحث العامة بالمُديريّة بدأ استجواب الفلاح الفكيه**:**

- اسمك؟
- جرجاوي نصر المراغي.
- سنك؟
- ٣٧ سنة.
- عملك؟
- فلاح أجير بالطورية عند الغير**.**
- كم بلد زُرتها؟
- ما اتحركتش من بلدنا من جنب الفُرن والكانون**.**
- معلوماتك عن المُتهمين بسرقة البنك؟
- ولا عُمري عرفتهم ولا شُفتهم ولا سمعت بيهم**.**
- ورد إلينا معلومات إنك شريك العصابة وتعرفهم، من خلال تعرفك على الصور المُوزعة**..**
- يا خراب بيتك يا جرجااوي **..** عليا الطلاق ما حصل **..** ازاي يا بيه؟ فلاح بالطورية يعمل كدا وسيدي الخديوي والشيخ شبن ما أعرف حاجة**..**
- ذكرت في ليلة أمس ذلك؟
- أنا كُنت بهزر يا بيه، كنت عاوز أصيع عليهم علشان مسميني لازق للمَرَه، في البيت **!**حبيت أعمل فكيه وأعيش الدور **..** يا خراب بيتي يا سعادة البيه **!**يا بيه أنا بهيم باكل (تبن) مع البقرة وأنام تحتها (وتكعِل) عليّ **..** يبقى أعرف الناس دي ازاي يا بيه**!!**

- يطلُب الإذن لدخول الحمام، فقد ابتلت ملابسه ببوله وبرازه من شدة الخوف***!!**

- أنتَ عارف عقوبتك إيه؟
- عقوبة يعني إيه يا بيه؟
- عقاب على جريمتك**..**

- جريمة إيه يا سعادة البيه؟ أنا عملت جريمة برضه! واحد (بهيم) زيي يعمل جريمة! ده أنا بقرة يا بيه وجاموسة كمان!

- القرار، يستريح المُتهم، واحضاره وقتما تُريد جهات التحقيق*..

ويستمر الفلاح الفكيه شهرين على هذا الحال بين التحقيقات ومضاهات بصماته ودورانه على الأقسام الشُرطيَّة ودور المباحث العامة، وتنفيذ الأحكام ودور رعاية الأحداث، وقلم المُخدرات والأموال العامة و وحدات المرور، كل ذلك ولا حس له ولا خبر ولا أي شبه أو مُجرد شبهه عليه، وله بطاقة تموين ولم يُسافر من بلده قط ولم يحج أو حتى يعتمر ولم ير مدينة المُحافظة في حياته سوى بندر قريته بسوق المواشي..

- يُفرج عنه مع مُراقبته ويقبع في بيته من المغيب حتى الشروق لمُدة ثلاثة أشهُر .
- بركه يا بيه اللي جات منكم، أنا كده حياتي في البيت علشان (المَره) ماتقوليش إطلع أقعد مع الرجالة تاني، أنا مكاني يا بيه جنب الفُرن والكانون ولو (المره) مش عاجبها أطلقها ورزقي على الله..

ضحكت كثيرًا وأنا على مقعد رئيس التحرير بمقر جريدة أخبار دمنهور بمدينة دمنهور، وأنا استعرض في خيالي كل هذه الذكريات التي أتعلم منها يوميًّا أن الدُنيا ما هي إلّا مسرح كبير، فيه نجوم وكومبارس ومحوريين وهامشيين ومُخرج ومصورين ونَص ومُشاهدين ! وأن يوم القيامة عنه الناس غافلين..

****

الفصل الرابع

١٩٩٥-٩-٢٧

"دمبهور العاصمة"

فرحة عامرة لا توصف وأنا أجلس في شقة مقر الجريدة، أتحرك كيفما أشاء دون عناء، أو إلتزام إيجار، أو حتى قيود الأقارب وأوامرهم **..**فجأة دق الباب المفتوح ينُم عن ضجة يُصاحبها الحاج جميل ومعه أربعة أشخاص مُهندمين وطول بعرض، يبدو أنهم من عائلة كريمة من عائلات دمنهُور جاءوا لأمر هام، مجيء مؤقت سُرعان ما ينتهي وأخلد بمُفردي، أهيم عشقًا بالمقر وحدي، ورُبما أتركه مُترجلًا إلى فُندق الربيع بشارع الصاغة، فهُناك حجرة مُخصصة لي لقضاء ليلة للنوم أو الحركة، كيفما أشاء**..**

قال الحاج جميل :

هو فين الريس يا أحمد؟***** قالها وهو يغلق باب الحُجرة وراءه، بعد أن ترك رفاقه في الصالة على مقاعد الإجتماعات **..** سافر إلى شبراخيت ليبيت ليلته عند أُسرته**..**

- ازاي ده حصل؟ أنا قُلتله إنتظر ساعتين وسآتيك بخير وفير**!!** ما علينا، أجلس على المكتب كما أنتَ ولا تُقم لأحد عند السلام، ثُم حمل جاكت رئيس التحرير من شماعة الحائط ووضعه على كتفي، وطلب مني أن أضع سماعة الهاتف على إحدى أذني، وكأنِّي أتحدث لأحد بالإملاء، شدد على عدم وقوفي لأنني أرتدي الترننق، وأضع كلتا رجليّ في شبشب الحمام، حتى لا يُفتضح أمرنا؛ كي تتم الصفقة على خير**.**

لا تقل أكثر من لا .....ولا ....وفي الآخر مع إلحاحي قُل :

علشان خاطرك يا حاج جميل...

ثُم خرج وتحدث إلى رفاقه أن الباشا مُدير التحرير سيُقابلكم بعد قليل، حتى يفرغ من إملاء مقاله إلى المطبعة في القاهرة، وهو يحل محل رئيس التحرير ..ثُم أدخلهم واحدًا تلو الآخر، فهممت أن أصافحهم، فضغط على كتفي لأظل في موضع الجلوس وأمسك لي بسماعة الهاتف الأرضي والتي لم تكن تعمل بعد، فالحرارة قد تصل بعد أسبوع أو أسبوعين..

جلس الحاج جميل أمامي في مُحاولة لحجب الرفاق الأربعة عن رؤيتي الكاملة، ولأن المكتب الذي أجلس أمامه (إيديال) مُحكم الإغلاق من جوانبه فلا يرى من الجالس خلفه سوى ما يُريك هو منه.

لم أكن أفهم الموضوع بعد، ولم تكن أمامي خلفية بما أرد؛ ولكنني جعلت لكل حادث حديث، وتركت الأمر لصاحب الأمر..

يا سعادة الباشا والخطاب لي، هؤلاء هُم مُمثلوا الحاج أحمد الشرنوبي مُرشح مقعد مجلس الشعب عن دائرة بندر دمنهور، وهو من عائلة (الحوفي) لهُم في الجريدة عشم كبير في تغطية الحملة الإنتخابيّة التي إنطلق صداها مُنذ أيام، وقد أكدت لهُم أن العشم في محله، وسيتم عمل تخفيض كبير لهم، ولولا ارتفاع أسعار الورق والأحبار لقُمنا بنشر الحملة مجانًا على حلقات..

نُريد نشر صفحة أسبوعيّة على أن يأتي من طرفكم مُحرر للتغطيّة ومصور أو ترصدون على الطبيعة وجهات النظر بالضبط .. فبكم الصفحة؟

- **الحاج جميل** :

الصفحة بعشرة آلاف جنيه سعرها الرسمي، فأردتُ أن أتدخل، فعلم جميل أن تدخُلي ربما يُفسد فن القول، فعاجلني ووجهه لهم وظهره يحجزني **:**ولكن سعادة الباشا مُدير التحرير له صلاحيات التخفيض، فيُمكنه أن يصل به إلى النصف، وأردت التدخُل لأقول، ومُمكن تخفيض أكبر وفي قرارة نفسي لو وصلت الصفحة لألفين أو حتى ألف، يُعتبر هذا سبق كبير ومصلحة مُهمة للجريدة**..**

ولكن شطارة الحاج جميل منعتني من إفساد الأمر، الذي تحول إلى نصف صفحة بثلاثة آلاف جنيه؛ ولكن بدأت مطرقة التخفيض حتى أوصلها الحاج جميل إلى **(**١٦٠٠**)** جنيه **!!**فأردت أن أقول الألف جنيه تكفي؛ ولكنه تحدث بنبرة عالية وحجز صوتي بأنني أُريد أن أقول ثلاثة آلاف؛ ولكنه يتعشم في موافقتي وقام باحتضاني وهو يضغط على كتفيّ ويمسك بالقلم وأمر النشر ويجعلني أوقّع على العقد لنشر عشر حلقات، كل حلقة نصف صفحة بمبلغ **(**١٦٠٠**)** جنيه، كما ذكرت فلما وقّعت على **(**١٥٠٠**)** قام بتقطيع الورقة وهو يتوسلّي لأن أوقع على ما تم الإتفاق عليه ودس عليهم أنني دونت على ألفين**..**

وتم توقيعي وتوقيعهم، فأخرجوا من جعابهم ستة آلاف جنيه، جزء مُقدم من مبلغ ستة عشر ألف جنيه قيمة نشر عشر حلقات، وفي تلك اللحظة دخل علينا فجأة رئيس التحرير على غير توقع، وبعد مُصافحة الجميع جاء ليجلس بجواري في إشارة لعدم تحرُكي بعد ضغطه على كتفي وساقي، فلما قُلت له ما انتهينا إليه، نهض الحاج جميل مُعلنًا أن حضرتك يا سيادة رئيس التحرير تفوض مُدير التحرير في حالة إنشغالك .وهو قد وقع ورجاه ألّا يُعارض، وقام باحتضانه وتقبيل رأسه، والحاج جميل رجُل في الخمسين بدين يتمتع بكرش كالحامل في شهرها السابع **!!** تحل هامته تحت السقف وله هيبة و وقار، فهو وكيل الحزب المُعارض بدمنهور، علاوة على تولية منصب مُدير إدارة

دمنهور التجارية، فهو حاصل على بكالوريوس المعهد العالي للتعاون الزراعي بشُبرا كمنحة وفرتها له الوزارة بعد تعيينه بنظام القوى العاملة بدبلوم المدارس الثانويّة الزراعيّة..

رئيس التحرير : أحمد هو الجريدة وتوقيعه هو توقيعي ولو أنني موجود قبل التوقيع فلن أقبل بأقل من ثلاثين ألفًا لهذه العمليّة، وأن المُهندس أحمد الشرنوبي صديقه ويتمنى له الفوز بالمقعد، ودعم الجريدة له سيكون عونًا كبيرًا..

انصرف الحضور و ودعهم الحاج جميل على باب المقر، وتمنى لهُم التوفيق بعد أن انتزع موافقتهم على ضرورة قهوتنا ونحنُ نُغطي المسيرات، وهو مُصطلح استطاع أن ينفذ منه لباب مُربح كبير، كما أنه يعتمد عليّ في الحوار، وأن الباشا مُدير التحرير سيذهب معنا بنفسه للتغطية، وهو أمر غير معهود؛ ولكن– يقصدنني -أقوم به حُبًّا فيه وفي المُرشح، وقهوتنا مُصطلح مطاط ليس المقصود به القهوة المُعتادة؛ ولكن قد يكون البقشيش أو الحلاوة أو بدل الانتقال، خاصة أنه استطاع أن ينتزع لهُم خصمًا كبيرًا وعليهُم له مُكافأة يُقدرونها حسب ذوقهم، ثُم عاد مُسرعًا فاحتضنّاه على براعته في الدور الذي قام به في هذا الفيلم السينمائي السريع، ونجح المشهد، وهنأه الريس على براعته وقام بمنحه مبلغ ألفين جنيه مُكافأة، ومنحني نفس المبلغ و وضع في جيب بدلته نفس المبلغ !!وقال أن العشرة آلاف الباقية ستدخل في حساب الجريدة لزوم الطباعة والتجهيز وأجور العُمال والمُحررين ومصاريف المقر..

ودّعني رئيس التحرير بعد أن دعاني؛ لكي أذهب معه إلى بلدته "أبو منجوج" وأقضي يومين لأُغير جو !فاعتذرت بلُطف لأنني أُريد أن أقضي وقتًا في استجمام مع الألفين من الجنيهات الذين حزتهُم اليوم في دقائق يااااااااااه سُبحان الله أشكرك يا ربي وأحمد وأشكر فضلك على هذه المنحة الكبيرة، رزقكم في السماء وما توعدون ..ثُم غادر الحاج

سمير الذي كان يسكُن في شارع المدرسة الفكريّة بجوار أرض أدمون على أن يأتيني عشاء في الفُندق ويقضي معي وقتًا لا بأس به..

أغلقت المقر وذلك بعد العصر وأطلقت لساقي الريح وأوقفت تاكسي العداد وطلبت منه توصيلي إلى فُندق الربيع في الصاغة، وعلمت أن الأُجرة جنيه واحد.

فطلبت منه جولة في المدينة كُلها، فأكد لي أنها تستغرق ساعتين ويأخذ عشرين جُنيهًا، على أن أُخفّض المبلغ إلى عشرة أو خمسة عشرة ففوجئ بموافقتي على الفور، وتركت يقف أمام ضريح غريب الأطوار على مقربة من دمنهور المدينة، وطلبت منه النزول لألقي نظرة بعد أن ذكر لي أننا ضاحية دمتيوه..

وبسرعة البرق رفعت كفى لله العلي القدير أن يوفقني ويسدد خُطاي ويرزقني، وشرعت في قراءة الفاتحة وإذ بالسائق يروح في نوبة ضحك هيستيريّة تُسقطه على الأرض وهو يكاد يقول توقف توقف، فأحسست أنه يكرهني ولا يُريد لي الخير من الله في بيت ومقام من مقامات أولياء الله الصالحين..

وبعد ربع ساعة بالضبط أفاق السائق وهدأت ثورة الضحك عنده وأنا أنظر إليه بسُخرية عجيبة، وإذ به يقول يا أُستاذ ليس هذا مُقام وليّ من أولياء الله لا الصالحين ولا حتى الطالحين!!

زاد تعجُّبي واستغرابي؛ ولكن ما هذا؟ إن الصورة كما هي بشكل المقام، مقام سيدي عبد الرحيم القناوي ومقام سيدي المرسي أبو العباس ...وهكذا كل ذلك

كاد أن يضحك ثانية؛ ولكنه تمالك أعصابه قائلًا :هذا يا سيدي مقام أبو حصيرة ..أبو حصيرة؟ !اليهودي الكائن في دمنهور الذي قرأت عنه كثيرًا، الذي أتى على حصير من الحلف من المغرب حتى استقربه

المقام هُنا **!!**ويحج إليه في العام أكثر من ثلاثة آلاف حاج يهودي في يوم مُعين تشهده دمنهور وأنظار العالم كله مصوّبة تجاهها وحراسات الشُرطة على أتم استعداد، ثُم بعد ترانيمهم يحتسون الخمرة ويتيهون في نوم عميق حتى الصباح؛ لتزجرهم الشمس لإيقاظهم، فقال لي السائق **:** والله هذه هي طريقتهم وطريقة عبادتهم ولديهم أيام أُخرى كيوم الغُفران، كما أن العيدين **"** لديناالفطر والمُبارك **"**ونحجُّ في العيد الكبير، والأخوة المسيحيين لهم عيدان، الميلاد وهو العيد الأصغر وعيد القيامة وهو العيد الأكبر وفيه يحجون إلى بيت المقدس كما نحجّ نحنُ المُسلمين إلى الكعبة المُشرفة ويوم عرفة.

يا سيدي : هذه هي أديان الله السماويّة (اليهوديّة **–** المسيحيّة **–** الإسلام) فلو تأملت حرف المُسلم تجدها قريبة جدًا من حرف المسيحي، وأن قضية التحريف في كُتب الله المُقدسة أتت وتأتي دائمًا إذا حادت عن لُغتها التي نزلت بها، فالقُرآن نزل بلسان عربي مبين والتوراة والإنجيل نزلا بلُغات أُخرى فإذا ترجما إلى لُغة القرآن، فلن تجد المعنى الأصلي كما في لغته؛ لذلك ترجمة القرآن الحرفيّة ممنوعة؛ ولكنه لا مانع من ترجمة المعاني للفهم**..**

فقُلت : وكيف يُقابل الدماهرة حجيج اليهود كل عام، وكيف يؤمنون بمسألة الحصيرة التي جاء عليها هذا الرجل من المغرب**؟!**

قال لي: لا تعجب يا سيدي ولا تعجل، فقد قيل أن المرسي أبو العباس والسيد أحمد البدوي آتيًا من المغرب طائرين في حومة كبيرة، واستقر المقام بهم في مصر، ثُم إن أولياء الله في القاهرة القديمة لم يدفن منهم سوى السيدة نفيسة والبقيّة أضرحة ومقامات، والصوفيّة عند المُسلمين هـيّ الرهبنة عند المسيحيّة وكذلك عند اليهوديّة**...**

ألم تعلم أن الكعبة المُشرفة بناها سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل **!** قُلت نعم، قال **:**وكان يحج إليها الناس كُل عام قبل الإسلام وأن سيدنا

رسول الله مُحمد قابل بعض هؤلاء الحجيج من يثرب ودعاهم إلى الإسلام فآمنوا به وبرسالته ودعوه إلى يثرب و وعدوه بمناصرته، فلبى النداء وهاجر إليهم..

قُلت: نعم، أعلم ذلك كله.

فقال: هذا المقام (أبو حصيرة) خير وبركة على أهلها.

قُلت: كيف؟

قال: عاش الأهالي هُنا قرونًا على خيره وكانت العائلات تتنافس على سقـاية الحجيج.

قُلت: سقاية الحجيج!!

قال: نعم، سقاية الحجيج وحُرمتهم بأجر، وهذا وارد ومُتاح، فيقول الأهالي بتبوير ثلاثة أفدنة حول المقام كساحة احتفال، أو عندما يسكر الحاج اليهودي، يقومون بجمع زُجاجات الويسكي والخمرة، فيها النُص أو الرُبع أو أكثر..

الشامبانيا وأنواع الخمور الأُخرى الأصليّة الآتية من بلادها ...وهذا ثمنه كبير.

فقُلت: أيسكرون بها أم يبيعونها؟

قال: من هذا على ذاك، فالفنادق تشتريها والبارات التي تُقدم كاسات الويسكي للزبائن نظير مبلغ كبير يصل إلى (٢٥) جنيه للكأس وربعه فقط والباقي ثلج ..وهُناك كأس سِك وكأس مخلوط (فالسِك هـو الذي لم تُخالطه المياه)، أمّا (المخلوط فهـو المزود بقطع من الثلج)، وعادة أهل الغرب في تناول الخمور هيّ عادة قديمة، فإحساسهم دائمًا بالدفـء لأن

إشعال الدفء في جسد الإنسان يأتي من الخمور والحلويات أكثر بكثير من الملابس الثقيلة وشربة العدس والفراخ...

ثُم استطرد **قائلًا :** هُنا في دمنهور عشر عائلات أبرز عوائل المدينة (الحوفى – المسيري – أباظة – عقدة – العاصي – قرقورة – النبوي ....) علاوة على رسلان، فكانت عائلتي الحوفى والمسيري من أكثر العائلات حظًا في سقية الحجيج؛ بسبب أرض المقام بتوسط أراضيهم الشاسعة، فما كان من عائلة عدنان إلّا أن وسطت ابنها عميد كُلية الحقوق برفع قضيّة لوقف شعائر الحج لأبي حصيرة على أرضهم، لأن الضريح نفسه مساحته صغيرة، ولا توجد أملاك للدولة حواليه !وهو سقط في هذه البوتقة؛ لأنه يُحب الأرض ويمقت الصحراء، يُحب الزرع والماء...

فقضت المحكمة بوقف هذه الاحتفالات ومن يومها وكاد الثأر أن يهيم بين العائلات وعائلة رسلان الناقمة على العائلات الأُخرى، المسألة يا سيدي هي مسألة مصلحة من مبادئ ..عارف يا سيدي أن الدكتور عبد الوهاب الذي تبحر في العلوم الفلسفية وألف موسوعات في اليهود واليهوديّة، وتم الاعتداد به كمرجع هام عن اليهود في مصر والعالم، أتته كل هذه الفصاحة والبلاغة والبيان من مُخالطته اليهود على أرض دمنهور قبل نهاية القرن العشرين بسني قليلة..

دمنهور يا سيدي هي أرض السلام، أرض كل الأديان تمارس الشعائر فيها بكل أريحيّة وأمان، هنا المآذن والأضرحة كضريح سيدي أبو الريش وسيدي الحصافي، كما أن مقر أسقفية البحيرة ومطروح والسلوم والمُدن الغربيّة الخمس المسيحيّة في دمنهور، منها خرج البابا تواضروس والقائم مقام الأنبا باخميوس ..بها كنائس عامرة، كما أن مقام أبو حصيرة دليل على أن دمنهور كان بها عائلات يهوديّة، أو على الأقل كانت لهم مزارع وأراضي وكانوا يسكنون الإسكندريّة، سأقص عليك حكاية يتعجب منها العجب!!

كان جدي يعمل بالجُمرك وكل يوم يأتي ريس عمال لكي يختار من بين الحضور من يعمل اليوم باليوميّة، وفي هذا اليوم لم يقع اختيار ريس العمال على جدي، وذلك قبل حرب١٩٤٨ ، فما كان منه لكي ينتهي من اليوم سوى التوجه لشاطئ البحر يتنفس الصعداء على المياه المالحة، ويُمدد أرجله؛ كي لا يتسلل إليه المرض..

وبالفعل ذهب؛ ولكن مشهد الموج بمياهه كان مُغري لأقصى حد، فخلع ملابسه ونزل البحر بدون مايوه– بالطبع -لأنه فقير، وأخذ مُعظم النهار في العوم والبقبقة والزفير ،إذ بيهوديّة تستميله كي يذهب معها إلى منزلها؛ لعمل يُساعدها فيه، وكان أجر يوم عمل عشرة قروش، فوافقت على أن تُعطيه جنيه مصري كامل، وما أدراك يا سيدي ما قيمة الجنيه المصري الكامل في عهد مولانا الملك فاروق، إنه كان يُساوي ثلاثة دولارات .

ذهب جدي معها فأُعجبت به فضاجعها في غفلة من زوجها، فأصبح ليله نهاره ونهاره ليله، غير ملابسه وارتدى الشورت والفانلة والكاب وأضحى يصطحب كلبًا في يده في الذهاب والإياب، وينادیه الناس بالخواجة ..وفي يوم اقتادته اليهوديّة السكندريّة إلى متجر كبير لشراء بعض الملابس بقيمة (٥٠٠) جنيه واستأذنت حتى تحضر المبلغ وأخذت معها الملابس وتركت جدي بالمتجر كرهينة، فلما طال انتظارها استطاع الباعة أن يتبينوا شخصيته فانهالوا عليه ضربًا حتى جردوه من ملابسه، وظلوا يستخدمونه أيامًا سداد ثمن الملابس المُباعة، ثُم تركوه كعهده فيما كان عليه..

إن يهود الإسكندريّة لهم آثار قويمة في المدينة، وكان لهم مصانع ومتاجر فأممتها منهم ثورة يوليو وقامت بطردهم خارج مصر بعد عدوان ١٩٥٦ فهاجروا إلى إسرائيل وكانوا أعلم بالمضرة في حرب ١٩٦٧، وبعد طول مكوث أمام ضريح (أبو حصيرة) قادني السائق إلى مقام سيدي أبو الريش في ضاحيته المعروفة باسمه، ثُم إلى جنوب

المدينة عند سيدي الحصافي بمقامه في مقابر المدينة، العجب أنها مقامات في المظهر كمقام أبي الحصيرة، فهكذا صنعت يد الإنسان صنعها الذي لا يختلف في الأديان، فالمولد واحد والجسد كما أبدع رب البريّة، والزواج والتناسل والدفن بعد الموت كُلها مشاهد واحدة مع اختلاف التراتيم !ولكن كله إلى رب العالمين سبحانه الواحد الأحد ..

دعوت السائق لتناول الغداء في مطعم النبوي بالأبراج، حيثُ اشتهت نفسي اللحوم بأنواعها، فأكلنا هنيئًا ودفعت الحساب الذي لم يتجاوز العشرين جنيهًا لطعام أثيم، ثُم مررنا بأرض أدمون أمام مبنى المحافظة وكذلك المستشفى العام بالقُرب من قرية زاوية غزال التي تُعتبر من تخوم المدينة، ورأيت نفق شُبرا ومبنى البلديّة وسينما المدينة التي بناها الخديوي إسماعيل، وهي شبيهة بالأوبرا المصريّة، ثُم صعدنا إلى الأستاد وشاهدنا مُباراة كُرة قدم ..

ذهب السائق ومنحته فوق ما طلب، وطلبته أن يأتيني من وقت لآخر وأنا أودعه على باب فندق الربيع في شارع الصاغة القريب من ميدان المحطة، فوجدت حُجرة مُخصصة باسمي لسريرين خاصين، فُندق نظيف وعُمال في حركة دائبة وإدارة حكيمة، ثُم نمت نومًا عميقًا في سرير أنيق بوسادة خالية وغطاء ما كنت في حاجة إليه، فالفرحة هيّ التي تدفئني وتغنين.

استيقظت في الصباح ووجهي مورد وباسم ومُمتلئ الأوداج، دون صُفرة أو إرهاق، وأخبروني أن الحاج جميل أتاني بعد العشاء ووجدني أخطُّ في نومٍ عميق فلم يشأ أن يوقظني لأستمتع بنومي لأفيق، اتضح لي أن لكل بلد أصحابها، والحاج جميل معروف لدى العامة، فهو كثير التنقل علاوة على وكالته بالحزب أتاحت له الاختلاط بالوجوه السياسيّة، وهو رجل مُحبٌّ لحزبه حريص على نشاطه وحريص على تواجده في الإنتخابات البرلمانيّة والشعبيّة والنقابيّة ..أذكر يومًا أنه استطاع أن ينفذ ترشيح أحد الأعضاء في انتخابات المجالس المحليّة بدمنهور عام ١٩٩٧، وانتهى من تقديم أوراقه وتم قبوله مُرشحًا رسميًّا في وجه قوائم الحزب الطاغي الحاكم وحزبي الوفد والتجمع، وكانت القائمة المُرشح

عليها الشيخ عاطف تخص بندر دمنهور لعضويّة مجلس المحافظة، ينجح منهم عشرة أعضاء يُمثلون الدائرة، وكانت هذه القائمة محل فوز بالتزكية لأعضاء الحزب الحاكم، لولا ترشيح الشيخ عاطف.

وفي ليلة بين العشاء والفجر طرق باب منزله بقريته "زاوية غزال" زوار الفجر" وطلبوا منه أن يرتدي ملابسه ويأتي معهم؛ فبال على نفسه وقبل أن يتحدثوا معه، صارحهم بأنه مضحوك عليه والسبب الحاج جميل الذي زجَّ به في هذه المعركة وغرر، وهو لا يُحب السياسة ولا يألفها ومُستعد للتنازل من الآن وتقديم كل الأسف والاعتذار وصل إلى حدِّ تقبيل الأيادي حتى لا يُصرع أولاده ولا ترجف زوجته أم عياله !وفاز زوار الليل في الجولة من أول منازلة، وهم كانوا يضعون سيناريو على حلقات لتنازل الشيخ عاطف، تنتهي بأن يُساوم ماديًّا، فإن لم يفلحوا يتركوه يفوز ويخلو له مرشح من الحزب الحاكم حتى لا تجرى الإنتخابات وتُرهق مثل هذه الأجهزة؛ ولكن الشيخ عاطف قصَّر المسافات وباع القضيّة من أول وهلة، كما تنازل في اليوم التالي عن عضويته في الحزب، وقدم التوبة أمام حزب الحكومة ووعدهم أنه لن يأتي تجاه السياسة في حياته.

في العاشرة صباحًا وبعد استيقاظي وفرك وجهي بكلتا يديّ والثني والمد لكل عضلات جسدي، قُمت فتوضأت وصليت وارتديت ملابسي للخروج وتناول طعام الإفطار، فأرشدوني إلى مطعم فول شهير في شارع الصاغة اسمه أبو عاصي ، وهو يحمل اسم عائلة شهيرة بدمنهور !آتوني بالفول المهدرج بالسمن البلدي وبالطعميّة الساخنة والباذنجان والفلفل والعيش البلدي النظيف، فأكلت حتى استويت، ثُم دفعت جنيهين ونصف الجنيه وبقشيش نصف جنيه !فطار العمال من الفرح وعظّموا ليّ السلام وأفسحوا لي الطريق، وقبل أن أخرج فوجئت بالحاج جميل يأتيني بعدما سأل عنِّي بالفندق، فأرشدوه إلى مكاني بالمطعم، فرحب بي وقادني إلى قهوة عقدة لأحتسي الشاي والشيشة التي لم يكن لي بها عهد؛ ولكن وجدت الأمر يطلبها!!

ثُم عُدنا إلى الجريدة مشيًا والحاج جميل يمر بي من شوارع وأزقة تنادي الحاج محمد عسل أشهر عطار في دمنهور، بأن الأُستاذ أحمد مُدير التحرير أهووو– يقصدني -ثُم يرده الحاج محمد بأن الكرتونة ستصبح جاهزة بعد ساعة، ولم أفهم هذه الشفرة التي دارت بينهما وفهمت بعدها أن الحاج جميل يُتاجر باسمي ويدعي أن أخبارًا تموينية عن محل العطارة سلبية قُمت بمنعها من النشر، وهذا لم يحدث ولم أفهمه بعد، صحافة الإبتزاز والنفوذ الصفراء ؛ولكني كنت سعيدًا بمُقابلة الحاج رياض وهو نقابي معلم شهير بمدينة دمنهور ومحافظة البحيرة كلها، رجل كريم إلى أقصى حد، اجتماعي بقدر كبير، يعرفه الناس ويعرف الناس جميعًا.

كل ذلك وأنا لا أعرف فن العوم، ولا أفهم قدر الحفاوة التي أُقابل بها لدى من قابلت، بل كل من قابلت سعادة الباشا مُدير التحرير ..وأنا بالأمس كُنت الطريد الذليل، الباحث عن مأوى في أي مكان حتى مقلب زبالة آمن، أجدني اليوم وبين عشية وضحاها باشا ،هذا والله خير كبير ونعمة وفضل آتاني من رب العالمين ..كما وجدت الحاج سمير يُصافح مارًا بسيارته ومعه السائق، بأن هذا يا دكتور سعادة الباشا مُدير التحرير، وأتبيّن أنه الدكتور حمام أشهر أطبّاء دمنهور في علاج أمراض الكبد والجهاز الهضمي، قيلت عنه أقاويل وقصص و روايات حتى إن زوجه طُلقت منه لأنه عليل لا يقدر على مُضاجعتها ليلًا بالسرير..

كل من قابلت يُحدد ليّ معهم الحاج جميل مواعيد ولقاءات، وسيكون بيني وبينهم صولات وجولات المهم وصلنا مقر الجريدة وبدأت الحياة تبدأ مع أول دقيقة، اللَّهُمَّ يَسّر وأعن..

****

الفصل الخامس

١٩-٦-١٩٩٦

"دموع على الدوران"

دلفت إلى مكتبي بالجريدة وجلست على مقعده، والحاج جميل يتحدث مع الجميع، ورحت أراجع المادة الصحفيّة وأعيد صياغتها أحيانًا، ثُم أُسافر إلى القاهرة مساء الأربعاء في القطار الفرنساوي الذي يقوم في الثامنة والربع مساءً من الإسكندريّة، حيثُ يصل دمنهور في التاسعة، ومنه إلى القاهرة في الحادية عشرة مساءً وأحيانًا يزيد ربع أو ثلث ساعة وأنا مُستمتع بالمرور على محطات إيتاي البارود وكفر الزيات في طنطا، ثُم بركة السبع وقويسنا ثُم محطة بنها، ولا يتوقف سوى في القاهرة عند محطة رمسيس وهو يمر بطوخ وقها وقليوب فشُبرا الخيمة،(١٦٠) كيلو من المُتعة والجمال، ثُم أنزل لأتحرك صوب حي الدُقي الذي اتخذت فيه مسكنًا بمائتي حنيه أجر الشهر الواحد، وفتحت هذا المسكن لكل من يُريد أن يُقيم معنا بلا مُقابل، وعليَّ الإطعام والسلف النقدي لكل من يُريد، حيثُ زاد دخلي شهريًا قُرابة الألف جنيه علاوة على عمولة الإعلانات وبيع المُرتجع، ولم تكن لي مآرب أُخرى، حيثُ ليست البحيرة بلدي لكي يستفيد منها أهلي، أو أقاربي، وذات يوم دعاني زميل لمُقابلة وكيل وزارة التعليم " جارو " في مكتبه لأنه مُعجب بمقالاتي ويثني عليّ فيها، ويتصور أنني شيخ عجوز تحملني عصى في المسير.

ذهبت إليه في مبنى المُديريّة القريب من الكُبري العلوي، فإستقبلني بحفاوة بالغة، وكان على عكس وكلاء الوزارة المُنتفخي الأوداج، سمين البطن تبرز للأمام، له خُطوات ترتعد منها أرضيّة الطُرقات، كان أنيقًا طويل، اسبور في جسمه وملابسه، أنيق، عينه مثل عين الصقر، لمَّاح

إلى حد كبير، ووجدت عنده الأُستاذ حسين وكيل المُديريّة وهو رجُل مُهذب وتربوي و درس فاهم الفولة..

بعد الشاي والترحاب والنقاش، علمت أنه كان مُدير عام إدارة حدائق القُبة التعليميّة بالقاهرة، ثُم رقيَّ لهذا المنصب؛ لأن وزير التعليم يعلم نشاطه، ومُقتنع به وهو من مُحافظة الشرقيّة مولدًا ونشأة.

دعاني إلى مُرافقته في السفر إلى القاهرة صباح الخميس في ديزل الساعة الواحدة ظُهرًا، فهو يُسافر أسبوعيًا إلى مسكنه بجسر السويس بالقاهرة، تعمقت علاقتي بهِ طيلة خمس سنوات قضيتهم في البحيرة (٢٠٠٠ – ١٩٩٥)، وكنت أكشف المسالب رغم أنه صديقي القويم، وكنّا في عشاء سهرة بالإسكندريّة في ضيافة نقابة مُعلمي جنوب البحيرة الفرعيّة، بصُحبة الأُستاذ "سامي رياض"، امتدت حتى الساعات الأولى من الصباح على القهوة التجاريّة، وعُدنا إلى دمنهور بالسيارة مسافة لا تتجاوز الأربعين دقيقة، فهيّ البندر، والبحيرة تُعتبر مزارع وعزب البهاوات الإسكندرانيّة، فهكذا كان توفيق الحكيم يعيش في عاصمة الثغر وعزبته في الدلنجات..

فوجئ وكيل الوزارة بمقال في عمودي الأسبوعي بالصفحة الأخيرة تحت عُنوان "ثابت هو طريق العودة" مُنتزعًا من أول رواية قرأتها في حياتي وأُعجبت بها للعملاق" يوسف السباعي"، والعُنوان الفرعي بدر الدين والنمراوي، وكان الأول مُدير إدارة التعليم الفني والثاني هي نادية النمراوي مُدير عام إدارة دمنهور التعليميّة قبل أن تنقسم قسمين :بندر ومركز !!شرحت فيه وجهة نظري التي تُبين أن "جارو" حاقد عليهما ويرفُض توليهما أو أحد منهما منصب وكيل المُديريّة الذي خلا بوصول حسين سن التعاقد وأن" جارو" لا يُحب أن يُنافسه أحد أو حتى يزيحه أو يُهدده في المنصب الذي يطمح أن يصل إلى سن المعاش، وهو قائم فيه عام ٢٠٠٣ .

وتأتي الرياح بما لا تشتهي السُفن، فقد أوشى به الدماهرة جمع دمنهوري، ووصلت رائحته حتى القاهرة وقيل– وشاية -أنه يُحابي ويُجامل ويُفرق، وكلها تهم بحراويّة لا أساس لها من الصحة لأن طول الوقت الذي استمر فيه في منصب ست سنوات ونصف، وهو وقت كبير **(٢٠٠٢ – ١٩٩٦)** لا يسمح الدماهرة لأحد أن يمكُث هذا القدر دون أن يُمطروه بالتهم ويرشقوه بالفضائح كما رشقوا "عادل إلهامي" المُحافظ الأسبق وهتفوا ضده علانيّة (أُلفت- أُلفت) وألفت هذه كانت فاتنة دمنهور وجميلة الجميلات ذات شعر أصفر وجسم يُشبه جسم وردة الجزائريّة في عز مجدها، وكانت تطمح في الاقتران بي؛ ولكن خوفي من عدم القُدرة على إكمال المهام أعاقني عن عدم الخوض في المعركة..

وذات يوم دعتني إلى منزلها بقلب دمنهور، وأنا تحت المنزل هاجمني شاب مفتول العضلات قوي البنية أبيض مُكتز **:** إلى أين أنتَ ذاهب؟

فعاجلته : أُريد الأُستاذة أُلفت؟

فقال : من أنتَ؟

فقُلت : أنا أحمد بخيت.

قال : وبتبيع إيه يا فقري؟

قُلت : لا أبيع شيئًا، أنا صحفي.

فقال : بتتصفح فين؟

وكدت أهلك في وقفتي بعد أن أحاطني مجموعة من عُمال المخبز يُشبهون البودي جاردات، لولا عناية الله فقد نادتني أُلفت **:** تفضل يا أُستاذ أحمد..

هُنا صمت الشحط ولم ينطق ببنت شفه، بل استدار كما يستدير الكلب الهول إلى حيثُ يشتهي.

جلست في شقة الأُستاذة أُلفت الأنيقة والحمراء في كل شيء حتى السجاد والستائر والأنتريه، وكذلك عباية البيت التي ترتديها فتزداد احمرارًا مع أحمرارها، كانت تكبرني بعشر سنوات ومن كثرة خُطابها لم تتزوج، ومن شدة سيطها الذي علق بأذهان المُحافظ وكبار رجال المُحافظة، وكذلك مسيرات الشباب الذين كانوا ينامون على التراب في مُحاولة لمُشاهدتها سواء في البلكونة أم وهي تخرج من بيتها تقصد خدمة المواطنين..والحق أن رئيس التحرير كان يُقدرها كأُخت يعرفها مُنذ سنوات وهي قريبة من سنه مواليد الخمسينات.

خرج "جارو" وكيل وزارة التعليم بالبحيرة من منصبه قبل بلوغ سن المعاش بعام ونصف كُلف بالمكوث بحُجرة خاصة به بالوزارة مع عدم إسناد عمل له يُباشره وبدون توقيع، بمعنى يعيش على حريته المُدة المُتبقيّة له.. تُصادف وجودي في يوم نقله مُجبرًا للوزارة، وسلمت عليه وهو خارج من استراحته يستعد لركوب سيارة أستأجرها على نفقته، حيثُ قيل أن الوزير أمر بنقله وهو يُحدثه في التليفون.

وبعد هذه الواقعة بشهرين دعتني نقابة المُعلمين بجنوب الجيزة إلى لقاء سهرة في فُندق الشيراتون بمصر الجديدة نلتقي فيه بالأُستاذ "جارو" ونرفه عليه حتى يعلم أن البحاروة كُرماء والدماهرة جدعان .. جاء رياض والقناوي وهويدى وسامي وعلام وغزال، وجلسنا ساعتين لم يكن فيهما إلّا بهجة ولا سرور ولا فرح، وكأننا نجلس في عزاء ميت لا يهمنا؛ ولكننا مهمومون بلا شيء.

وكان مقررًا للسهرة حتى الفجر ونحنُ مازلنا في العشاء، وإذ بـ" **رياض** "وصاحبه يطلبون الوداع لأن هُناك شاغل يشغلهم، أو وهمّ يداهمهم والساعة لم تصل إلى العاشرة مساءً، فاستغرب جارو أشد الإستغراب، وحاول أن يتوسل إليهم أن يكمل سهرته وحتى لو على حسابه دون جدوى فقُمنا جميعًا وتركوني بصحبة وكيل الوزارة السابق في الشارع لأوقف له تاكسي؛ ولكنه أكد لي أنه ذكر لزوجته أن البحاروة جاءوا وراءه لكي يسهروا معه حتى الفجر، وهذا معناه أنهم راضين عنه، وهذا معناه أنه لم يخرج بسلبية، وخروجه قضاء وقدر، والوزير مخُّه تعبان! والمُحافظ مش فاهم! وهكذا...

وعاد يقول فإذا ما ذهبت هذا الوقت إلى البيت فإن زوجتي التي هيأت نفسها لسعادتي وسروري الليلة وسعادتها هيّ أيضًا، ستُصاب بالهم والغم، ورُبما الحُزن الذي قد يؤثر على سلامة حواسها **!!**فطلب مني أن يصطحبني إلى ميدان سيدنا الحُسين واتعشى على حسابه في مطعم الدهان أو العهد الجديد، ومن يعرف هذه المطاعم حق المعرفة ولا يقوم بعزومة أحد إلّا العزيز الغالي، أو مصلحة لك عنده تخصك، أو امرأة تُريد أن تتقرب منها لكي تقنعها بأن الجنس ومُمارستة أمر مطلوب حتى لا نُصاب بالأمراض والعُقد والإكتئاب**..**

وأمام إلحاحه وإشفاقي عليه ذهبت معه وقام بطلب العشاء؛ هو كوارع ثمينة القيمة والثمن، سمينة الحجم والطعم، ويبدو أن إدارة المطعم يعرفونه، فأوسعوا له" ترابيزة "ورحبوا به وهو كذلك يعلم أسماء، منهم بالإسم والكُنية**.**

وفي وسط النهم الشديد الذي أُجبرت عليه مُرغمًا؛ لاحت قطرات دمع في مُقلتيه وشنشنة أنفه، وأن الأكل بدأ يلوك في فمه، ثُم ألقاه في طبقه وقذف ما في فمه وراح في بُكاء شديد **..**ومن حُسن الحظ أنه لم يرمقنا أحد من إدارة المطعم أو رواده، إما لأنهم مشغولون بحالهم، وإما لعدم إحراجنا**.**

يا أحمد، الجماعة المحترمين المحترمين دول اللي باعوني الليلة دي وأنا كنت فاكر أنهم بيحبوني وجايين عشان يطيبوا خاطري ويواسوني لأني تركت المنصب وأنا في قمة مجدي، والوزير المجنون باعني بوشاية كاذبة، لأنه (ودَنِي) أفتكرني بأحابي هريدي على حسابه كما الحريم زغردوا في الوزارة ابتهاجًا بتعيين هريدي وزير بدل العصبي ده **!!**

فأنا طلبت مُدير مكتب الوزير وطلبت منه أن يوصلني بالوزير الجديد لأُهنئه، وهيّ عادة جرت وجرينا عليها، فلما عاد الوزير إلى مقعده زغرد الرجال **:**

الوزير هو الوزير، فأوشى بي عنده مُدير مكتبه اللي شبه مُمثلي السيما زين بيه فقرر الإنتقام مني، ولم يشأ المُحافظ أن يُدافع عني أو حتى يتوسط لأنه كان مهمومًا بغيري**..**

أنا يا أحمد لما كان (بز صُباع) رجلي الشمال يوجعني ألاقي الكُل فوق راسي والنقابة المقصرة عن بكرة أبيها بتهشتكني، ومُديرو الإدارات بعتوا يطلبوا "مجدي يعقوب" يداويني، والأمر بسيط لا يستدعي ذلك كله، فيحملوني عنوة في سياراتهم لأقضي السهرة في الإسكندريّة كيفما أشاء وكيفما أُريد وإلى وقتما أحدد، وكانوا مش ناقصين غير يجيبوا لي نسوان ترقصلي**!!**

أنا غلطان إني عشمت نفسي في شوية ناس زي دول، اعتبرتهم إخواتي، وكنت عاوز أعزمهم والله على حسابي، وياما دلعتهم وياما رقيتهم استثنائي، وياما منحتهم علاوات ومُكافآت وهدايا وأراضي وسديت وراهم بلاوي**!!** لولاي يا أحمد كان كلهم دخلوا السجن، بس ماخلصنيش العيش والملح و ولادهم اللي وراهم، وزوجاتهم الفاضلات اللي كانوا يعتبروني أبوهم، حامي الحقوق والمُدافع عن الحقوق، مُقدس الواجبات**..**

شُكرًا يا أحمد إنك قبلت عزومتي، شكرًا يا أحمد إنك رفضت تسيبني وأنتَ ملكش ذنب ولا استفدت مني أبدًا في حياتك، يا أحمد أنا الفراغ هيموتني، وكل يوم أصحى الصُبح بدري وافتكر إني رايح مكتبي اتفاجأ بالحقيقة المُرة والوهم اللي مسيطر على نافوخي، يا أحمد أنا عاوز أموت وارتاح من دُنيتي، يجي ولاد الكلب دول يزودوا همي**!!** أنا هقبل أي وظيفة إن شاالله مُدير مدرسة خاصة، أهو أروح وأرجع كل يوم، بدل الموت اللي أنا فيه ده **!!**أنا كده ميت ميت وربنا كبير**.**

فرغنا من الطعام وإذ به يُنادي الجرسون **: محمد شوفلي الحساب كام؟**

- ٢٢٥ جنيه يا فندم.
- تمام، خُذ.

ثُم أعطاه **(**٢٥٠**)** جنيه وقال له **:**خلي الباقي عشانكُم يا محمد**!**

- شُكرًا يا فندم، لا تغب عنّا كثيرًا، نحنُ نكون في انتظارك**.**
- ربنا يسهل يا محمد، دعواتك**..**
- ربنا يديك الصحة يا فندم ويكرمك في الأولاد**..**

خرجنا وعلى درج السلّم الخشبي قلت له **:** حضرتك معاك أولاد كام يا ريس؟

- عندي بنت واحدة يا أحمد، طبيبة وتزوجت مُنذ عامين لزميل لها، وكان فرحها زي ألف ليلة وليلة**.**
- ربنا يخليهالك يا فندم، ويبارك لك في الأحفاد**.**
- ربنا اداها بنت، ربنا يكرمنا بيها وتخاويها قريبًا**.**
- يا رب يا ريس، يا رب**..**

دلفنا إلى مسجد مولانا سيدنا الحُسين الذي كان مفتوحًا بصفة دائمة، وضعنا أحذيتنا عند عامل البوابة، ودخلنا إلى البهو حيثُ قرأنا الفاتحة عند المقام ودعونا الله الخير والصحة والسعادة **..**وصلت الساعة مُنتصف الليل، أحسست أن همًّا كبيرًا بدأ في الإنزياح، ولم يتبق على صلاة الفجر سوى ثلاث ساعات ونصف، وأن للمُعاناة أن تنتهي، ويذهب كلانا إلى حال سبيله**.**

توضأنا وصلينا فروض ونوافل ولم أتمالك نفسي سوى بالوقوع على أرضية المسجد ونمت نومًا عميقًا، ولم أدرِ بنفسي إلّا وهو جالس على ركبتيه، يوفر ليّ الأمان والحرص من أعداء الله الذين عادة ما يقلبون النائمين ويسلبونهم نقودهم**!!**

استيقظت وأنا مُلقى على سجاد الصلاة وعيناي مفتوحتان أو أُحاول فتحهُما بصعوبة، بعدما نال جسدي التعب والإرهاق، وإذا به يتأملني بعُمق وكأنه يُشاهدني لأول مرة، وفي قلبه الطمأنينة والسكينة، فلما رمقته بناظري، علت وجهه ابتسامة الرضا العريضة وهو يربت على صدري **:**

كمل نومك يا أحمد..

الساعة تُشير إلى الثانية صباحًا، وها العذاب أن ينتهي ثُم نُصلي الفجر وينفك قيدي وتعود إليّ حُريتي، بالفعل هذا ما حدث وخرجنا بعد الصلاه مع تباشير يوم جديد قُبيل شروق الشمس بساعة، رأيت الهم والحُزن قد فارقاه، وأبيض وجهه، ولمعت عيناه بالرضا والسرور والراحة، وكأنه أراد أن يقول **:**شُكرًا يا أحمد على إنك آنستني في هذه الليلة وأعود إلى منزلي بجسر السويس هادئ البال، وترتاح زوجتي إلى سهرتي مع أصدقائي الدماهرة، وأقصُّ عليها قصصًا وحكايات من الخيال، حتى تهدأ من داخلها، وتدعو لي بالسلامة**..**

- إلى اللقاء يا أحمد.
- إلى اللقاء يا فندم.

وهكذا أفقت على ذكرياتي مع رجل بار، عمل مسئول لأهم مصلحة خدميّة في المُحافظة ست سنوات ونصف، بعد أن كُنت في زيارته وأثناء خروجي من مكتبه ودعني على سلّم المُديريّة العتيق، وفضلت المشي إلى الجريدة مُترجلًا لأنعم بلون الحياة الطبيعي، وإذ بشخصين يتبعاني كُلما ذهب وأينما عربت، من المُديريّة حتى قُرب الجريدة، فلم أعر بالي همًّا لذلك فلرُبما الصُدفة وحدها هي التي صنعت القدر!! ثُم سمعت باسمي يُنادى عليه وهو اسم الشُهرة وليس اسمي الشخصي، فالتفت ورائي وإذ بصديقين عزيزين، زُملائي فترة الدراسة بدار العلوم طيلة أربع أو خمس سنوات، تخرجا هما عام ١٩٩٣ وتركاني للإعادة باقيًا سنوات طويلة قاربت العشرين!!

- محمود وأحمد !معقولة؟ ما الذي أتى بكما إلى هُنا بالأحضان يا سينا هههه.
- أنتَ ما الذي أتى بك إلى هُنا، نحنُ من دمنهور وأنتَ تعلم ذلك، فلا غرابة من وجودنا؛ لكن وجودك هو المُستغرب حقيقة، والأغرب أنك تخرج من مكتب وكيل الوزارة وهو يودعك على سلم المُديريّة بعدما أبعدنا الحرس لخروجه..
- دي حكاية طويلة يا صديقي، تعالا معي إلى الجريدة..

واصطحبتهُما إليها، وكانت ليست ببعيدة، وفي الطريق أفهمهُما كل شيء حتى وصلت وجلست على مكتبي وهُما أمامي، فمر علينا رئيس التحرير الذي حيانا جميعًا، فقصصت عليه حكايتهُما، فقال لهُما :أحمد هو الجريدة وأي حاجة تحت أمركُما وفي أي وقت تُنيرونا، ثُم جلسنا وبعد الشاي ودعاني على أمل الحضور باكرًا، وهو ما تم بالفعل، وقد

حضرا والبُشرى معهُما أن سوزان حبيبة قلبي لم تتزوج بعد ويُمكنني أن أطلُب يدها فلن ترفُض هذه المرة **!!**ولـ**"**سوزان **"**حكاية طويلة**..**

مُنذ اليوم الأول في كُليتي دار العلوم، بعد أن قذفني مكتب التنسيق إليها وكنت أود كلية الآداب بسوهـاج قسم اللغة العربيّة أيضًا، كانت دُفعتنا **(**٤٧٠٠**)** طالب، وهيّ أكبر دُفعة قذف بها مكتب التنسيق إلى الكلية في تاريخها، فقسمونا قسمين أ ، ب ولكل قسم شعاب الـ ٢٨ بحسب الحروف الأبجديّة، وكان نصيبي في مجموعة جـ ، ب وكانت مُحاضرات مع طُلاب كثيرين مُناصفة بين البنات والبنين، فرمقت طالبة زميلة من أول يـوم لم أُغير نظرتي عنها في الغدو والترحال والقدوم والمضي، حتى انتهى عامنا الأول ٨٨/٨٩ وجاءت النتيجة مُخيبة للآمال، فقد بقينا نحنُ الإثنين للإعادة، أنا بخمس مواد وهـيّ بست، وكان علينا الحضور في جميع المُحاضرات سويًا، وقد خفت حدة الأعداد نوعًا ما، مما أهلنا للرؤية عن قُرب بواقعية أكثر **..**هيّ طويلة بيضاء، شعرها أسود، تحجبت في السنة الثانية، قاهريّة، جميلة القوام، وقبل أن ينتهي عامنا الثاني في الفرقة الأولى كانت قد تيقنت أنني مُعجب بها بشدة؛ ولكنني لم أكن أملك المُبادرة مع أنها تتحدث مع زُملائها الصبيان بشكل عادي وطبيعي، فحواري معها لن يكون فيه إنقاص لوضعيتها، ولكنني الريفي المُتحجر**!!**

وفي نهاية آخر المُحاضرات كان الحضور لدى الدكتور الناقد، الذي كان يعِد الطُلاب بالأسئلة التي ستأتي في الامتحان، وهُم عبارة عن عشرة أسئلة، يأتي منهم سؤالين إجباري، السؤال الأول من صـ ــ ٥ ٣٩والثاني من صـ ٥٣ ــ ٤٠ والثالث من ٦٩ ــ ٥٤ وهكذا **..**

ببساطة شديدة الكتاب كله مُقرر ومن يُجيب عن الأسئلة العشرة فهو قد ذاكر المنهج كله ومع ذلك كنّا نحرص على الحضور والتلقي.

كان أُستاذنا يعطي المُحاضرة ثلاث مرات لكثرة الطُلاب، فهممت بالدخول في المُحاضرة الثانية، وإذ بـ (سوزان) تخرج، فوقفت، فوقفت هيّ أمام مُدرج (٢) وثلاث عاملات يجلسن لخدمة المُدرج، ودخل من دخل وخرج من خرج، إلّا الأُستاذ مازال يجلس ويستمر، مما دعاني إلى الشجاعة مُستجمعًا كل ما حيز لي من قوة ورباطة جأش **وقُلت :** السلام عليكُم

- **قالت :** وعليكُم السلام
- هو الدكتور إداكُم أيه في المُحاضرة دي؟
- هو ماداش غير عشر أسئلة سيأتي منهم اثنان في الامتحان، ولم يقل شيئًا أكثر من هذا، وحضورك مثل عدم حضورك.

فطلبت منها الأسئلة، فأخذت في إملائي، وأنا ينتابني إحساس بحلاوة لم أذُقها من قبل، وأحسست أن نيران جسدي تشتعل، ولم أعد أعير أي أحد اهتمام، وأصبحت في عالم النسيان والخيال لا أرى سوى سوزان .

وحينما انتهيت من الإملاء للأسئلة، أخذنا أطراف الحديث وكأننا نعرف بعضنا من سنة، وكأن الشوق كله تدفق من نهره وفاض في نيلنا لمدة ساعة كاملة حتى انتهت المُحاضرة واستعد الطُلاب للخروج والدخول ونحنُ لا ندري ماذا يحدُث بالضبط، أفقت وهيّ فائقة بالطبع وانصرفنا على أمل اللقاء، وكدتُ أطير من فرحتي وأُرفرف في السما،

وانقضى العام واجتزنا الفرقة الأولى للثانية ونحنُ في مُحاضرات مُشتركة نتحدث كلما عنَّ الوقت لنا، وأقوم بكتابة المُحاضرات لها وتقوم هيّ كذلك وينتابني إحساس أن الورقة التي تُعطيني إياها كأنها قطعة من جسدها أُقربها من قلبي وأنام معها على وسادتي وأُقبلها أحيانًا وأضعها على صدري وأحكم عليها أزرار قميصي وبدلتي .. يااااااااه كل هذا الحُب!!

وتنتهي الفرقة الثانية وقد اجتزناها بسلام إلى الثالثة وبثبات انفعالي **طلبتني للحديث**:

- يا أحمد أنتَ أخويا ومافيش أخ يتزوج أخته ولا تنس أنني ساعدتك على التعرف عليّ، وهذه نقطة ضعف لن أغفرها لك، والطالبة لا يُمكن أن تتزوج زميلها إلّا في الأفلام، أمامك عام على التخرج وأمامي كذلك وأمامك خدمة عسكريّة وليس أمامي، وأنا أبحث عن مُتخرج ويعمل ويُجهز في الشقة حتى ينتهي زواجنا سريعًا ..أنتَ ستتخرج وتخدم في الجيش ثُم تُسافر إلى بلدك في الصعيد ولن تستطيع العيش في القاهرة وأنا لن أعيش إلّا في القاهرة.

"سوزان" بنت المنيب تسكُن الدوران عند محطة الشبراوي الآن، زحفت إلى منطقتها وبكيت على أعتابها ورجوتها أن تمنحني فُرصة إثبات الذات؛ ولكنها رأت غير ذلك، فتحطمت أعصابي وسال دمعي وتهتكت أوصالي، وحاولت الفكاك فلم أفلح..

أعلنت الجامعة عن رحلة إلى الإسكندريّة، مجانيّة فذهبت معهم كي أنسى عذابي وأتعرف على زميلاتي علَّني أفلت من عقباتي، وفي مُنتصف الرحلة قررت الهروب والذهاب إلى أقاربي وترك الرحلة لأنني لا أستطيع ترافقًا..

"تُرسل الشمس أشعتها، لتبدي عن كل ذي مظلمة، ما خطبك يا فتى، قلت أشكو ظلمة لواعج المعشوق، في التو جاءوا بها مُكبلة بالأغلال، والحكم عليها بالنفي إلى عالم الخيال، صرخت من شدة الحكم: اسمعوني، طلبت الشفاعة، فقالوا تالله تمثال."

أعلنت جامعة القاهرة نبأ اختفائي وأذاعته إذاعة الإسكندريّة، وقرر الدكتور" على السلمى "تحويل كل مُشرفي الرحلة إلى التحقيق، وحار الجميع بين أمرين، إمّا أن أزمة قلبية إنتابتني ووقعت على الشط وقذفتني أمواج البحر عند قلعة قايتباي !وإما حضر الصعايدة ورائي وقتلوني لأنني من سوهاج بلد الثأر والعصبيّة!!

وبعد ثلاثة أيـام عُدت إلى أرض الجامعة فوجدتُ يافطة بالبنط العريض تحمل اسمي رُباعي، وعليَّ الحضور إلى رعاية الشباب، وحضرت وهنأني الجميع على السلامة، وكدتُ أحوّل إلى مجلس تأديب لولا براعة مدام سامية القويّة التي استطاعت أن توقف الأمر نظرًا لأنني ساذج..

تعرفت على زميلة أُخرى تميل إلى القصر قليلًا، بيضاء كالشهب، مُبتسمة، من بني سويف وكأنها قاهريّة تُدعى" سمر"، تعمل الآن مُذيعة بالإذاعة، ولأنها أكبر منّي بثلاث سنوات فشكوت لها همّي، ولأنها خبيرة نصحتني عدة نصائح استطاعت من خلالهم أن تُغير طباعي، واستطعت من خلالهم أن أتغلب على حُبي المزعوم، وثارت حبيبتي "سوزان " وحاولت أن تردني لحظيرتها ولم تفلح، وبدأت أنظُر إليها على أنها فتاة عاديّة ليست أنوثتها طاغية، وسُرعان ما ارتبطت بزميل آخر ارتباط على ما أشبه بالخطوبة، ولم تعد تمثل ليّ أدنى اهتمام

لإنشغالي بأسماء وآمال هُما زميلتان من مركز منوف، غاية في الجمال، أغدو معهُما عُقب المحاضرات من الكُلية حتى ميدان الجيزة وبوابة المدينة الجامعية، ثُم نفترق ونعود، وبدأت أتعرف على أُخريات وانفتحت دفة الباب، وانفتحت ضلفة الشباك، وألقيت بُرقع الحياء ووقفت موضع الزميل الذي قتل زميلته قبلي بعـام وأنا مزهو بشهرتي والكُّل يعرفني، وللنشاط أنا عُنوان، وللقصة القصيرة مُقررًا وأمينًا وصنعت كذا مهرجان، وغلبت جماعة الشعر في الميدان وأصبحت في موضع من الجمل سنام..

- يااااااااه، سوزان مرة ثانية، معقول!! أهي ارتبطت بزميلها" نشـأت"؟
- لا، لم يتم الإرتباط لظروف عدم توفير الشقة، وقد عاد إلى المنزلة وبقيت" سوزان."
- لم أنسها يومًا وأنا على أتم الاستعداد لأذهب إلى والدها وأطلب يدها..
- خُذ هاتفها المكون من ستة أرقام (٢٣ ٦٥٦)
- أنا لا أذكر سوى ثلاث أرقام في آخره.
- خذه على أن تتصل بها في السادسة مساءً، هي في انتظارك يا فنـان..

وحـان الحين وتأخرت نصف ساعة، وطلبتها فإذا هيّ التي ترد وتُرحب ويبدو أنها مكسورة ومهيضة الجناح ! طلبت الحضور قالت : أنا في المدرسة، غدًا في انتظارك .. أو يوم آخر لا أذكره.

ذهبت في الموعد إلى المدرسة بالحوامدية، فهي مدرسة رُهبان أو هكذا تُسمى، فخرجت إليّ ولم أعد أحبها كما كان؛ ولكنها ستظل "سوزان"، قالت والدي في انتظارك في مكتبه الآن، أمّا أنا فسأذهب إلى درس مربوط على موعد ..

ذهبت إلى والدها، هو مُدير عام سابق بالتأمينات، له مؤلفات، معروف كالعلم في كُل مكان، ودار بيننا حديث لِمُدة ساعتين لم يُفاتحني في أمر سوزان ، فأحسست أن الرغبة ليست لديه، فانصرفت ولم أرَ زميليّ أحمد ومحمود بعد ذلك ولم أرَ سوزان، وبعد ستة أشهر قررت زيارتها في المدرسة، فجاءتني، غير مرتها الأولى، وقد تزوجت من إعلامي ..عليك اللعنة أيّها اللسان، انتهت سوزان وانتهى معها كل جمال، و لأعود من حيثُ بدأت كإنسان، حافي القدمين، محسور الرأس، ظاهر الكعبين كالقط الجوعان، لم أحزن كذي قبل؛ ولكنّي اعتبرت أنها ماتت وقبرها عند الدوران، كُلما غشيتني الرحمة أذهب إلى قبرها وأترحم على كل الأيام..

من دوران المنيب إلى رمسيس الميدان، ومن الأغاجان حتى المؤسسة ومدافن الجعران، مات قلبي ولم يعد كأي إنسان، رحم الله قلبي ورحم الله حبيبتي سوزان.

****

الفصل السادس

١٢-٣-١٩٩٧

"المحمودية بحيرة"

زارني في مكتبي بالجريدة يومًا وفد من تلميذات مدرسة المحموديّة الثانويّة التُجاريّة، وحمّلوني رسالة للمسئولين الذين نقلوا الأُستاذ عاصم من موقع مُدير مدرستهم إلى مكان آخر، وصرخت إحداهُن : لماذا أقالوه وهُو لم يُقصر في شيء، وكُلنا نحبه ونجلّه فهو ليس مُدير مدرستنا؛ بل هو أب لنا جميعًا؛ أعيدوا لنا الأُستاذ عاصم.

إنتفضتُ لحديث الطالبات معي، وقررت تدبيج مقال بعمودي في الصفحة الأخيرة الثابت وعنونته "عاصم" ، سردت فيه الحدث وطالبت بعودته إلى موقعه ..لبى المسئولون النداء وعاد الأُستاذ عاصم إلى موقعه فور مُطالعتهم المقال، وهو ما حدا بالمدرسة تدبير حفل لهذه المُناسبة، حللت فيه ضيفًا ومُتحدثًا، أعقب ذلك غداء بنادي المُعلمين على المُلتقى من ترعة المحموديّة بنهر النيل بفرع دُمياط، وصولًا إلى الإسكندريّة عند فوه والمحموديّة، اشتمل على فسيخ من المُحبب إلى قلبي التهمت ما يقرب من ٢ كيلو بدون عيش حتى اغرورقت عيوني ورحت في شبه غيبوبة حتى ألحقوني بلتر من المياه الغذائية وآخر من المياه المعدنيّة، أفقت بعد تناولهُما ودار حديث هام بيني وبين الحضور الكريم، منهم الأُستاذ مُشرف نقيب المُعلمين بالمحموديّة، أجبت فيه على كل أسئلة صوب مُستجدات العصر.

وفي يوم من الأيام انتدبني رئيس التحرير لإجراء حوار هام مع المُهندس "أحمد الليثي" الذي تولى مُوقع رئيس الشركة القابضة للتنميّة الزراعيّة، إحدى شركات قطاع الزراعة الهام، ومقرها بالإسكندريّة عند

نقطة العامريّة، ذهب معي الزميل "عبد اللطيف " الذي كان يعمل مع المُهندس "الليثي" ومقر إقامته بالتحرير الجنوبي أثناء رئاسته هذه الشركة قبل أن يغضب عليه "الجنزوري" ويزج به موظفًا، صار "الليثي" بعدها مُحافظًا للبحيرة عام ١٩٩٩ خلفًا للدكتور" فاروق التلاوي"، ثُم صار وزيرًا للزراعة خلفًا للدكتور "يوسف والي" الوزير التاريخي للزراعة، ولأنه رجل "عاطف عبيد" الأول وصاحب مجهود زراعي كبير، فقد صار إلى ما صار إليه بمجهوده، الرجل يجلس على طاولة اجتماعات مُحملة بأكواب من الدوسيهات والطلبات، يقوم بقراءتها جميعًا، وفحصها، والتأشير عليها..

رجل لا يجلس إلى مكتبه؛ لأنه يضيق به وبحجم ملفاته، كان في انتظارنا، وخرج بعدد الجريدة وتصفحه بطريقة عجيبة، بين يديه حفيده **قائلًا :** عملته امتى ده يا عبد اللطيف؟ سوف أُطالعه كل أسبوع ثُم أُعطيكُم إعلانات مُباشرة، بلغ مجموع ما أعطى في ثلاث سنوات (٩٦-٩٩) مليون وأربعمائة ألف جنيه في عز الرُخص!!

ولأن "عبداللطيف " صار كابنه أو كان كذلك، فكانت أخبار دمنهور تحظى بعنايته مثل الصُحف القوميّة بالضبط، ولم أُداوم على هذه العلاقة بحكم مشاغلي، وفقط كُنت أشرف على الوارد منها لنشره والعناية به..

وفي عز انتخابات ١٩٩٥ وقوتها كنا نطبع ثلاثين ألف نُسخة بمطابع أخبار اليوم أسبوعيًا تنفذ فور صدورها، وقُمنا بتشكيل شركة شحن خاصة لتوزيع نُسخ الجريدة بمُدن البحيرة والإسكندريّة والمنوفيّة وكفر الشيخ، تخوم البحيرة، ووصل توزيع كفر الدوار وحدها خمسة آلاف نُسخة أسبوعيًا والدلنجات ألفان من النُسخ؛ لأنها البلد المُثقفة الأولى في المُحافظة.

زُرت جميع مُدن وقُرى مُحافظة البحيرة وتناولت الطعام في القُرى، خاصة في رمضان، وتخرج من تحت يدي صحفيين كُبار نَمَت موهبتهم مع الزمان وهُم : نائب رئيس تحرير أخبار اليوم ونائب رئيس تحرير الأهرام ونائب رئيس تحرير جريدة الجمهوريّة والتي حاربت من أجلها الجميع حتى انتصرت لها؛ ولكني هُزمت ممن وقفت ضدهم، ولم أندم على شيء حتى الآن من وقفاتي معهم ومناصرتهم.

طلب منّي رئيس التحرير أن أقوم بتعليم اثنين من الزُملاء فن الإخراج الصحفي والديسك المركزي، حتى أفيق من همومي الثقيلة، ورغم أنني تخوفت للوهلة الأولى تحسُبًا لنفوذهم، إلّا أن هذا ما حدث بالفعل، فبعد تعليمهم منحني رئيس التحرير إجازة مفتوحة بنصف الراتب؛ لأنه وجد البديل؛ حقيقة كان رئيس التحرير يضعني في موضع أخيه الأصغر ولكنني برعونتي ضيعت كل ذلك هباءً!! وسمحت لمحاور الشر من الوصول إليه والوسوسة في أُذنيه لتحجيم موقعي وتقليصه بدعوى :

هل أنا مُمسك ذلات على رئيس التحرير أو نقاط ضعف؟ فقوى مع الزمن ووضعني في مكانة ضيقة جدًا كادت تخنقني.

نعود إلى أزمة نوفمبر ١٩٩٥ عندما هددت أخبار اليوم بوقف الطبع لحين ورود خطاب من رئيس المجلس الأعلى للصحافة يُفيد أن جريدة أخبار دمنهور تصدر عن جريدة الفلاح المصري عن الحزب المُعارض، وكان رئيس التحرير يخشى مواجهة رئيس الحزب، فقُمت بحمل هذه الأزمة عنه وذهبت إلى مقر الحزب في شارع المحروقي وقابلت السكرتيرة فاتن التي طلبت منّي التبرع للحزب وأهديها هدية، فقدمت لها مبلغ (٥٠٠) جنيه تبرع للحزب ومنحتها (١٠٠) جنيه هدية خاصة بها، فقامت بالدخول لرئيس الحزب وأبلغته بالتبرع وشرحت له الموقف، أنها تُريد منه خطاب إلى رئيس المجلس الأعلى للصحافة ورئيس مجلس الشورى، يفيد بتكبير اسم أخبار البحيرة تحت اسم الفلاح

المصري، وهو الاسم المُصرح به من المجلس، فقال ولِما رئيس المجلس الأعلى ، أنا أجيب هذا !وكتب خطاب بخط يده إلى مطابع أخبار اليوم أنه موافق على كتابة اسم أخبار البحيرة بخط كبير و واضح تحت الفلاح المصري على مسئوليته دون الرجوع إلى المجلس الأعلى للصحافة، و وقع وبصم بخاتم الحزب وكان خاتم نسر!!

ذهبت بالخطاب إلى الموظف المُختص بمُقايسات الأخبار أفكار التي طالعت الخطاب وأبدت سلامته وحسبت أنني أوردته من رئيس المجلس الأعلى للصحافة، ففي اسمه تقارب شديد مع اسم رئيس حزبنا المُعارض، ونمت على خير مع مُخالفة ذلك القانون وهو ما اعتور الجريدة بعد ذلك وأدى إلى صدور قرار المُحافظة بوقفها بناءً على تعليمات الجنزوري الذي أصاب الصحافة بشلل تام وحجَّم مساحة الحريّة إلى حد كبير، كانت هُناك مُلاحظات وتجارب هامة عشتها في أخبار البحيرة لابد من سردها..

حضر يومًا رجل كهل إلى مقر الجريدة ودخل إلى مكتبي وعرفني بأنه والد صفاء وأراد الإطمئنان عليها فقُلت له هيّ بخير وتسير في العمل على قدم وساق، كانت شابة جامعيّة في العشرين، تتمتع بجمال وجوه السينما، هادئة، بريئة؛ ولكنها لم تلفت نظري إليها قط ولا راودت نفسي عليها أو على غيرها بسبب انهماكي في العمل، فوجئت بوالد صفاء وهو من المحموديّة يطمئن على زوجتي و ولادتها، فاستغربت جدًا، حيثُ لم أكن مُتزوجًا بعد، وعلمت أنني اتصلت بصفاء وطلبت من والدها أن تُلازم صفاء زوجتي في ولادتها لمدة أسبوع، وقد وافق الأب على ذلك وأنا في حالة استغراب شديد، ووعدته خيرًا وصمتُّ حتى حضر أحد المُحررين الصغار الذي يمقته الجميع حتى خاله الشقيق!! ولأنه وحيد والدته ووالده متوفى فقررت احتضانه كابني متحملًا كل مُسالبه؛ ولكن أن يصل به الأمر إلى انتحال اسمي وصفتي ويغرر بالبنت الشابة مُستغلًا ظروفها وجنوحها للرذيلة ويحصل عليها بهذه الطريقة، قررت استبعاد صفاء من العمل بالجريدة دون الرجوع إلى

رئيس التحرير وحسبت ذلك فوضى كبيرة من المحرر الصغير الذي اعتبره كابني، وبعد فترة تبين أن هذا الأمر يعتبر في مصاف الأمور العادية ولا يدعو إلى الانزعاج بأي طريقة!!

ومن الشخصيات التي لفتت انتباهي بأخبار دمنهور، كاتب صحفي يُشار إليه بالبنان يُدعى طايل وكان من رجال التربيّة والتعليم ومُراسل مؤسسة دار التحرير للطبع والنشر وصاحب الكلمة الجبارة، وكانت تحلو له الكتابة في صلاة الجُمعة، وهو مبطوش على بطنه مطروح على الأرض يمسك بزُجاجة الخمر ويكتُب مقالات من أروع ما يكون، فكان الكُل يخشى قلمه حتى المُحافظ نفسه الذي وقف معه على السلم ويُعاتبه، وقد يصل الأمر إلى شبه التشابك بالأيدي، فطايل رجل كبير وقوي ويتصل بكبار المسئولين، وحدث يومًا أن رئيس مؤسسة دار التحرير أوقفه عن العمل، فتبرص حتى نظره في حفل، فتقدم إليه بقصيدة شدت إنتباه الجميع إليه:

أنتَ الذي إن شئت كدرت عيشي

وإن شئت بعد الله أنعمت باليَّ

فقرر رئيس المؤسسة عودته إلى عمله رغم أنه كان مُتهمًا بالاتصال برموز المُعارضة المُناوئة للمؤسسة.

عشت تجربة حُب واحدة حقيقة طيلة خمس سنوات بالبحيرة كانت مع طالبة جامعيّة بكليّة الآداب، وكانت من مدينة حوش عيسى، لفتت انتباهي بحيويتها ونشاطها وتقاطيع وجهها، وكانت مُتوسطة الطول، مُكتزة الأجناب، وهذا ما لفت نظري إليها!! وأحسست فيها بنبوغ صحفي كبير حينما عقدت حوارًا مع أمين الحزب الحاكم بالبحيرة، اللواء "عبد المنعم الصيرفي" الذي كان مُدير أمن سوهاج والمنيا قبل ذلك، وهو ينحدر إلى عائلة الصيرفي بقليشان مركز إيتاي البارود، وهيّ عائلة قويّة، منها رُتب قضائيّة وشُرطيّة مُتعددة..

حدث يومًا أن أحدهم ضرب بالرصاص في الانتخابات، فشل رئيس التحرير في إجراء حوار مُباشر معه ونجحت ولاء في الحوار كما نجحت في إجراء حوار مع الرجل الثاني في الحزب" ممدوح قريطم "واستطاعت أن تحصل على أسماء مُرشحي خمس قوائم لمجلس المُحافظة، قبل توقيعها من الأمين العام بدخولها في مُغامرة ركوب القطار في دمنهور، ونزولها طنطا، ثُم العودة حينما قابلت الأمين المُساعد صديق والدها الراحل، وأهداها هذا السيق الصحفي الذي عجزت عنه كبار الساسة في مُحافظة البحيرة، وتألقت ولاء، ومع تألقها كثرت الأحقاد؛ ولكنني كنت قويًا في عام ١٩٩٧ فلم يستطع أحد أن يُزحزحني عن مقاصدي أو حتى يُزحزحها.

طلبتها للزواج وحددت ليّ موعد مع والدتها، وذهبت إليهم والتقيت بعائلتها وهيّ من كُبرى العائلات بحوش عيسى بعد عائلة "قريطم"، ولكن أهلها رفضوا طلبي مُعتذرين، فبكيت لذلك ومررت بحالة حُزن شديدة، وبعد أيام رأيتها تقوم بشراء "ماكياج" من أحد محلات دمنهور وأنا جالس على مقهى "كابتشينو" بصُحبة أحد أقطاب المُعلمين الذي قام معي ودفع الحساب عنّي وعنها وقدره خمسون جنيه، وهو مبلغ كبير في حينها..

فوجئت بعدها بيومين بزميلة مُحررة من حوش عيسى كانت تنقم على تأليق "ولاء" فعلمت أن اليوم هو خطوبتها فحدثتها ورغبت في زيارتها لفضح أمرها، أمامي وإثبات حقيقته، فاعتذرت ولاء عن ذلك!!

وقالت نورا : يا أُستاذ أحمد، خطوبة خطيبتك النهارده! أُصيبت بذهول؛ ولكن ليس كأول مرة تم فيها الرفض، وتمسكت بالأمل؛ ولكن ليس بالقوي واحتمالات ضعفه كانت واردة لديّ ..يومها فقط علمت أن الماكياجات التي اشترتها ودفع صديقي ثمنها أنها كانت لخطيبها وليست ليّ !!وانتهى أمرها بطلبي من والدتها عدم حضورها للجريدة مرة ثانية حتى لا يحدُث ما لا يحمد عقباه وكانت والدتها مُتسلطة وقويّة تُشكك في أي شيء حتى وجودها في الحياة!

أمّا التجربة المريرة التي استفدت منها، من وجودي بالبحيرة، هي تعرض شقيق والدي بالإسكندريّة لحادث رشه بماء النيران و وضعه في السجن على يد الأخطبوط السكندري الذي كان يصاهره عمي، وحدث بينهما تنافس في العمل أدى إلى مُحاولته قتل عمي أكثر من مرة؛ ولكن في هذه المرة كانت الطامة الكُبرى، ونشرت الصحف القوميّة في نوفمبر ١٩٩٨ في صدر صفحتها الأولى مُقاول العجمي يقصدون عمي قتل زوجته وخطف ابنته وأحرق بيته وغطت جريدة المساء في اليوم ذاته الحادث بحوار مع والدي وعمي الآخر اللذان اعترفا باشتراكهما في الجريمة، وهذا لم يحدُث بالمرة، فلا الزوجة ماتت ولا البيت تم حرقه ولا البنت تم خطفها **!**ونفوذ هذا الرجل وراء ذلك كله، فكان عليّ أن أحمل فأسي على كتفي وأُحارب من أجل وجود أُسرتي بسوهاج والإسكندريّة وإلّا كل شيء يضيع وينتهي**.**

كان مُحامي الإسكندريّة صديق رئيس التحرير، فذهبت إليه وشرحت الموقف وأطلعته على الحقيقة، فتبنى الأمر حتى انجلت الحقيقة أمام الأعين، كذلك ذهبت إلى مُدير الأمن الذي كان يشغل نفس المنصب بالبحيرة قبل نقله إلى الإسكندريّة، وكذلك مُدير مباحث أمن الدولة، فأحكمت الكماشة حول رقبة الطغاة وشقيق والدي مُصاب بمياه النيران في أجزاء من جسمه ومحجوز في مُستشفى الحروق بالإسكندريّة ومُقرر حبسه احتياطيًا **(٤٥)** يومًا بأمر وكيل النائب العام **..**ساعدتني الزميلة غادة ووقفت إلى جواري بكل ما أُوتيت والزميلة فايزة، ورئيس التحرير الذي لم يدخر وسعًا في سبيل إعلاء كلمة الحق، حتى قال القضاء كلمته وتم الإفراج عن عمي وفتح ملف القضيّة مرة ثانيّة والقبض على الجُناة والزج بهم إلى السجن، وانتصرت عائلة وانتصرت أنا أمام كل الجهات الغاشمة التي تُساند القويّ**.**

مضيت الأيام سريعًا، وقد اتنقص قدري في الجريدة إلى حدٍ كبير، ولم يعد لأهميتي من مكان **!**وجاء العام الأخير مليئًا بالأحداث فقد عزم رئيس التحرير على إصدار جريدة أسبوعيّة على مستوى الجمهوريّة

يصدرها الحزب، وقد مرض رئيس الحزب مرضًا اضطره إلى العلاج في فرنسا فترة من الوقت، وعاد بعدها ولكنه لم يكن كسابق عهده، فقد سلم المقاليد لأربعة من القيادة لهم حق التوقيع باسمه لإدارة شئون الحزب، وتم الإعداد للجريدة الجديدة وعمل الدعاية الكافية لها عبر وسائل الإعلام في التلفزيون والشبكة المُغلقة بمترو الأنفاق، ولافتات الشوارع، مما كان ينذر بإصدار صحيفة قويّة لم يعهدها الحزب ذي قبل..

وفي اليوم الموعود جاءت إشارة المجلس الأعلى للصحافة بوقف صدور الجريدة لعدم الترخيص لها، حيثُ اعتمدت على تغيير اسم آخر لاسمها وهو الحدث، وقوة رئيس مجلس الإصدار القديم حالت دون عملية التغيير لتلاعب القادة الأربعة بالأمر وهو ما حال دون الطبع بعد التجهيزات، وتمت مُقاضاة رئيس التحرير بتُهمة تزوير تأشيرة رئيس مجلس الشورى ورئيس المجلس الأعلى للصحافة على صورة ضوئية، وهو ما حال دون التهمة وحفظ التحقيق؛ ولكنه صادف لغطًا كبيرًا في المُجتمع أصبح أداة للمُتربصين بأمورنا ومُدعاة للهجُوم والتّهكُم ردحًا من الزمن.

ودخلت دائرة الاتهام بأنني من المُحرضين على عدم إصدار جريدة الحدث ومن المُحرضين أيضًا على مُحاولة إغلاق الجريدة الصادرة باسم أخبار دمنهورعن الفلاح المصري، والتي كان اسمها قد تغير إلى "الأخبار الزراعيّة"، و زاد الطين بلّة أن علاقتي بمُحافظ الإقليم والسكرتير العام زادت هذه الأيام إلى حدّ الاتصال والمُقابلة والمُرافقة في السفر ..فقد رافقت السكرتير العام إلى القاهرة من دمنهور عدة مرات، ودامت أواصر الود بيننا واستدامت، فوشى بي العُملاء المُزدوجون عند رئيس التحرير الذي كان يتحين الفُرصة لإقتصائي دون ثمن، فجلست معه يومًا وأكدت له أنني بعد الله لولاي ما استدامت الجريدة في الصدور .

كان الهدف منها الفائدة السريعة المؤقتة لغرض سداد ديونه لدى مؤسسة الأخبار، عبارة عن شيكين بدون رصيد! لزوم طباعة عددين من جريدة الفلاح المصري في السابق، فداهُما ثمانية آلاف من الجنيهات، حملا قضيتين أقعدتاه عن العمل وأدى الأمر إلى نزوحه إلى قريته ينتظر من الله الفرج، فجاءة اثنان يعرضان عليه التعاون في إصدار أخبار دمنهور لأنه أوهمهما بملكيته التصريح والترخيص وأن رئيس الحزب كان يفوضه في ذلك..

ومن نعم الله أن رئيس الحزب كان يشجع أي نشاط هدفه انتشار صورة الحزب لدى القاعدة الجماهيريّة، وكان رئيس التحرير يُحاول أن يتنصل من هذا، لأن حميه يشغل منصب رئيس مجلس محلي المُحافظة وصار أمينًا للحزب الحاكم بعدها، وهو ما يحرج موقفه تجاه أسرته، ولكنه– أي رئيس التحرير -اعتدل في جلسته وأخذ يُناطح الجميع ويُحاول أن يُثبت لهم حماية لحميه وعلاقاته أكثر ويملُك القلم الذي يفتقده حميه!!

وقد بعث له السكرتير العام للمُحافظ يومًا مع عميل مزدوج أنه يستطيع أن يفرمه وينهي تاريخه، لأن مسالبه كثيرة، وكان السكرتير العام عديل المُحافظ، ويستحيل معه أمر الوقيعة بينهُما، وكان عويصًا على البلع، لحم ليس طازج ولا مستوٍ للبلع فقد ناطح مُحافظ بني سويف من قبل في عز مجده وهو رئيس مدينة الإقليم، وقدم له استقالته على ورقة وترك المُحافظ مُتجهًا إلى وزارة التنمية الريفيّة، يجلس ستة شهور بدون عمل ويحصل على راتبه، حتى أتته فُرصة رئاسة مدينة دمنهور عام ١٩٩٦ ، وتقلد بعدها منصب السكرتير العام بالإنابة وهو رجل ضليع في المحليات، ناطح وزير الإسكان قبل ذلك عندما أراد نقل الإدارات الهندسيّة إلى وزارته وتجريد المحليات منها للقضاء على الرشوة والمحسوبيّة..

عارضت رئيس التحرير في العزم على محاربة المُحافظ والسكرتير العام ووافقه أعضاء مجلس التحرير بالإجماع، فاعتبر ذلك انحياز إليهم لمصالح معهم شخصيّة وتوصيل نقاط الضعف إليهم التي نُعاني منها وتُعاني منها الجريدة.

تحملت التهميش شهورًا عديدة، انتقص راتبي إلى (٤٠٠) جنيه شهريًا ومُنعت الحوافز والمُكافآت وعمولة الإعلانات والفائدة من أعضاء البرلمان، كما صار لتلاميذي الحظوة والغلبة في كل شيء.

تولى مُحافظ جديد "أحمد الليثي" بعد التلاوي ومعه نقل ر.رسكرتيرًا عامًا إلى دمياط، فهنأ رئيس التحرير نفسه بذلك ومُنى من دائرته المُحيطة بالاستمراريّة لأن الرجل الذي كان يرجوه جاء، ومع ذلك نشط المناوئون وزاد نشاطهم حتى استطاعوا أن يصلوا بالحقيقة للمُحافظ الجديد أن أخبار دمنهور بلا ترخيص، ولأنه رجل قوي عندما حضر له رئيس التحرير مُهنئًا ظل يقلب في أوراقه وناداه باسمه مُجردًا : إزيك يا مُحمد، عامل ايه؟ وخلاص، وعندما أراد رئيس التحرير أن يعيش دورًا ليس دوره زجره المُحافظ :أنتَ لك شُغلك يا مُحمد ولست وصيًّا على العرش، يا بني شوف أوراقك السليمة وأمامك أسبوع، وإلّا أغلقت لك هذه الدُكانة، لأنني هُنا لن أسمح بغير عدالة القانون أن تسود، وأن المواطن الغلبان الذي يقتات من حماره أفضل عندي من أي بيه كبير .. مع السلامة!!

انتهى الأمر وكأن الحلم الذي عاشه ليلة أمس انقشع وأصبح سراب، وأن العهد الماضي كان حقًا أفضل بكثير، على الأقل كان هُناك نقاش أسبوع واحد فقط وتم صدور قرار الإغلاق من المُحافظ، رغم أن رئيس الوزراء صاحب القرارات تمت إحالته للتقاعُد، وجاء رئيس حكومة جديد ولكن ظلّ القرار معمولًا به .. أغلقنا الباب في نوفمبر ١٩٩٩وتم بيع بضائع الجريدة ، وتفرق الجميع إلى حال سبيله إلّا أنا، أثرت أن أترك المُحافة كُلها والوجه البحري كله، لأنني كُنت وافدًا مع شخص مات إكلينيكيًا!! وظلت لى علاقات مع بعض الأشخاص من زُملائي وأبنائي، فقد تمت خطوبة إحدى الزميلات بمدينة إيتاي البارود رغم أنها من الدلنجات، باعتبار إيتاي هيّ بندر بلاد عديدة على الخط الزراعي، فأسرت في نفسي العروسة أن هناك مهندسة في الأبنيّة التعليميّة تقبل الارتباط بي من إيتاي البارود وكانت قبلها عرفتني على زميلتها المُعيدة في كُلية الآداب بدمنهور قسم اللغة العربيّة دفعة ١٩٩٦ ، وبعد أن عزمت على التعرف عليها واحدة تلو الأُخرى تذكرت أنني لم أحصل بعد على شهادة المؤهل العالي وتركت كليتي ويتبقى عليّ أربع مواد أو خمس دون أن انتهي منهم، وانشغالي بأخبار دمنهور وشئونها وعزّها ومجدها؛ حال دون ذلك فاعتذرت لزميلتي بأنني أرغب في الاقتران بطبيبة تُداويني في الإعياء وتُداوي أولادها وتُساهم في تضميد جروحهم.

الفصل السابع

٢٢-٦-٢٠٠٢

"جعلوني رياضيًا"

انتهى الأمر وتفرقت بنا السُبل وذهب كلٌ منّا إلى حال سبيله، وصدرت جريدتنا باسم آخر، ووزع المحررون أنفسهم بين هذه الجريدة وجريدة البحراويّة لسان حال حزب التجمع بالبحيرة، ونقم الجميع على رئيس التحرير وبدأت حرب الإشاعات من أقرب الناس إليه..

إنطفأ القنديل ومعه تركت البحيرة برُمتها وعدت لأعمل بجريدة الحزب المركزيّة التي يرأس تحريرها صحفي مشهور لم يكن يروق وجهي لأنني كُنت أُعابسه في الحزب وأُهاجمه هو وكل مُساعديه.

لم أستمر طويلًا وتركت العمل بعد ستة شهور كسكرتير تحرير فني، وعملت بعض الوقت في جريدة الكورة و الملاعب وميدان الرياضة شهور قليلة فقط، لم أكن أو لم أستطع الإندماج مع العمل .

وفي عام ٢٠٢٢ في أحد أيامه طلب منِّي الدكتور علاء صادق رئيس تحرير صحيفة ميدان الرياضة أن أصطحب مصورًا على نفقتي وأذهب به إلى نادي هيلوبوليس لتغطيّة حدث رياضي هوافتتاح مدرسة ميدو الكرويّة .

ميدو هو أحمد حُسام وكانت شهرته طاغية في هذه الأيام، وكان عمره (١٨) عامًا لا يجيد سوى لعب الكُرة، وصلت النادي بصُحبة مصور يدعي اللواء نجيب ووعدته بأن أتحمل نفقاته والأفلام التي يصورها، ولأن بيننا عمل دائم فقبل الرجل، وكان النادي قريب له، يعرف مداخله، فوصلنا بسهولة ودخلنا حتى المُستطيل الأخضر فوجدنا

ميدو يلعب مع البراعم الصغيرة من سن **(١٤ – ٧)** سنة، شاب طويل يملك أدبية الحديث، خارج من مرحلة الصبا لتوه، عرفنا أنفسنا فاستقبلنا كهل قصير القامة، عرف نفسه بأنه حُسام وصفي والـد ميدو، فذكرت له سبب حضورنا وبدأت في التعرف عليه**:**

- حضرتك بتحب الكُورة؟
- أنا لاعب كُرة قدم.
- أنا أول مرة أسمع بحضرتك**!**
- إزاي **!**أنا حُسام وصفي كابتن نادي الزمالك**!!**
- أنا أهلاوي بالفطرة، عشان كده لا أعرف لاعبي الزمالك سوى حسن شحاتة وفاروق جعفر وطه بصري وعادل المأمور وعلى خليل**..**
- أنا بقى قبل الجيل ده.
- حسنًا، مرحبًا بك.

طلب منّي نزول المصور لالتقاط الصور التذكاريّة للبراعم مع ميدو، حيثُ أن مصورهم اعتذر **..** نزل المصور اللواء نجيب أرض الملعب والتقط صور زادت عن المائة واستهلك ثلاثة أفلام ذوات الست والثلاثين صورة، وهو مصور صحفي يملُك أدواته من حقيبة وكاميرا وجراب وعدسة؛ استأذن المصور ساعة لكي يقوم بتحميض الأفلام والعودة بالصور لدى استديو قريب**..**

دار حديث بيني وبين الكابتن حُسام وصفي يوصف بالحميمية، شرح ليّ الموقف أنه يعمل خبير الكُرة الأوروبيّة في القارة الأفريقية، وهو سمسار مُعتمد، ولم أكن ذا عهد بذلك من قبل وبدأت أتفهم الأمر تباعًا مع الشرح والتحليل يتبين ليّ أنه اكتشف ثلاثة لاعبين وباعهم لقارة أوربا **:**

هيثم من السودان، وأحمد صلاح حُسني من مصر وابنه أحمد حُسام ميدو، وعندما سألته عمّا تقاضاه من هذه الصفقات أشاح بوجهه **قائلًا :**

أنا بأشرف الكُرة الأفريقية**!!**

سلّم علينا ميدو بطوله الفارع ، يُجيد الكلام أو الأحاديث الصحفيّة، لكن يقوم والده بالنيابة عنه في إجراء أي حديث أو معلومات **..**بعد تناول المشروبات والمُرطبات، عاد المصور يمسك الصور ويقوم بتوزيعها على الأشبال**.**

بلغ مجموع النقود التي حصل عليها ثلاثة آلاف جنيه، اقتسمناهُم مُناصفة، وأصبح هذا اليوم مشهود ليّ ومُسجل في قاموسي**..**

أخفقت في تغطية انتخابات نادي ٦ أكتوبر الرياضي والإجتماعي، وأخفقت في الحصول على إعلانات للجريدة، فغضب صاحب الإمتياز، وبدأ يضعني في منزلة لا أحبها، ففضلت أن أنصرف من نفسي بعدما صرف وجبات طعام لجميع العاملين بالجريدة ماعداي، فأحسست أنه يقصيني بأدب**!!**

وقبل هذا التاريخ بعام التحقت للعمل بدار أخبار اليوم في إصدارات فرعيّة كسكرتير تحرير فني، عملت بجد واجتهاد أربعين يومًا عبر الدور التاسع، وفي يوم من الأيام عادت مُشرفة التحرير من سفر لها فطلب الزُملاء منّي الدخول للتهنئة بسلامتها.

فدخلت معهم وعرفتني يومها، وبعد ذهابي لمنزلي في العاشرة مساءً جاءني اتصال على تليفوني المحمول**:**

- أحمد؟
- نعم**!**
- أنتَ لا عمل لك عندنا، أنا وائل سكرتير الأُستاذة، لا عمل ولا سلام ولا دخول ولا وساطة**!**

وكان اليوم نفسه الذي نزلت للدور السابع لكي أسلم على الأُستاذ "جمال الغيطاني" وهو بلدياتي من نفس القريّة؛ كي يُساعدني في تخصيص مُكافأة ليّ ويوصي بي عند الأُستاذة، فوعدني خيرًا، وإلى الآن لا أعلم أن الإقصاء جاء من هذه الفعلة؟ أم من تلك التي سبقتها، المُهم هو إقصائي**!!**

وفي نفس التوقيت تم إقصاء مُدير تحرير إصدارات المؤسسة التي تشرف عليها الأُستاذة، لأنه دخل في غيبتها عند رئيس المؤسسة وشرح له ما يُعانيه والأُستاذة دائبة السفر لمهرجانات السينما العالميّة، شكر له الرئيس ووعده بالخير عندما تعود الأُستاذة بسلامة الله، وأثناء سلامه عليها ذكرت له أنه يتحمل الكثير في غيابها ويستحق أن يُكافأ، ففرح واغتبط مسرورًا بأن كل ما يرجوه رضا الأُستاذه عنه، فعاجلته **:**

غدًا كل شيء سيتحقق**..**

فرح كثيرًا واستعد لأن يتولى رئاسة تحرير أحد الإصدارات حتى ولو بالإنابة، وهو ما يرجوه ولأنه يساري لا يبكيه العيش ولا الملح**!!**

وفي اليوم التالي وأثناء دخوله المؤسسة أبلغه أفراد الأمن أن قرار تعيين جديد صدر له، فاغتبط وشكرهم، فذكروا له أن القرار شمل نقله إلى قطاع الثقافة بالمؤسسة كبائع كتب ثقافيّة ككادر صحفي يستطيع أن يستميل القُرّاء في الشراء ويرشدهم**!** وقع على الأرض س**.**ع فحملوه وألقوا به في مبنى مجاور أشبه بسور الكُتب وطلبوا منه التوقيع على القرار والإفادة وإلا يجد نفسه مفصول من عمله**..**

ونفس القصة حدثت في الأهرام عندما إجتمع رئيسها مع المُحررين تحت التمرين، وعددهم يربو على المائتين وشرح لهم ظروف المؤسسة السيئة ماديًّا؛ وأن تعيينهم مُحررين قد يستغرق وقتًا، ومن لم يستطع الإنتظار عليه أن يعين موظفًا إداريًا يضمن راتبه ومستقبله، رفض

النصف وقبل النصف، وفي اليوم التالي تم طرد جميع الذين رفضوا من بوابة الأمن ودفع البعض الذين حاولوا الهجوم .

وفي نفس الوقت لمع نجم الصحفي الرياضي" محمود معروف " بمؤسسة دار التحرير وكان قد وصل إلى علاقة صداقة مع أولاد الحكومة، وحلم بأن يُصبح رئيس تحرير كبير.

حوارات وحكايات كانت تحاك في الوسط الصحفي في العقد الأول من القرن العشرين، إنتهت بالإطاحة برؤساء المؤسسات الحكومية وإحلال محلهم صبيان لا يلوون على تسيير الأمور لأنهم غير مؤهلين في غيبة الكبار! وهذا هو الصراع.

تزوجت في أول أكتوبر ٢٠٠٤ وأنا بغير عمل، أعيش على مُدخراتي وما تدره العلاقات من إعلانات ومُراسلات القرية ليّ من زاد، ففوجئت في ديسمبر من نفس العام بدعوة صديق ليّ للمُساهمة في إصدار صحيفة للمُحامين تُناصر الأُستاذ الفقيه في انتخابات المُحامين المزمع إجراؤها في مارس من عام ٢٠٠٥ بينه وبين سامح عاشور؛ لم يكن ليّ بالمُحامين عهد، سوى ذكرهم دائمًا بالخير.

الأمر الأول: عندما اتُهمت أُسرتي بقتل سيدة وابنها في مُحيط عائلتنا الكبير، وتم القبض على أربعة منهم وذلك عام ١٩٤٥ ، فكان شقيق جدّي لأبي مُتمرسًا على السفر والعلاقات بين الناس، فغادر سرًّا إلى القاهرة عبر قطار فحم الكوك، واستطاع أن يوكل الأُستاذ" محمد صبري أبو علم "نقيب المُحامين– آنذاك -والوزير الوفدي المشهور في قضيتنا زهاء أتعاب مادية قدرها (٣٥٠) جنيه وهو مبلغ كبيرًا جدًا وقتها حيثُ سعر الفدان الزراعي لا يتعدى الـ (١٥٠)جنيه في أجود الأرض، وكانت المُحاكمة في أسيوط وتمت تبرئة أربعة أفراد من أُسرتي على يديه.

الأمر الثاني: عندما قضت المحكمة الجُزئية في بلدنا على والـدي بالحبس لمدة شهر مع النفاذ لاتهامه بضرب أحد أفراد أُسرتي وإحداث شجة برأسه ووجهه، وكان والـدي رحمه الله أبعد عن كل هذا، حيثُ هـو إمام مسجد القرية ويصلح في المُنازعات ويفصل حدود الأرض بين المُتخاصمين ويثمن أسعار المواشي والأبقار وكلمته مقبولة مع الجميع؛ ولكن أحد أفراد أُسرتنا كان يعمل خفير في مركز الشرطة وكان دائمًا مكروه مع كثير من الناس..

وحدث أن وصل الأمر للمرحلة الأخيرة في المُعارضة الاستئنافيّة بطهطا عـام ١٩٩٢ ، وكان يوم زواج أُختي التي تصغرني بعامين، وحاولنا إرجاء الأمر دون جدوى، وتم الزفاف على أن يمثل والدي في اليوم التالي لتنفيذ الحُكم– لا محالة -وبذهابه وذهابي معه إلى قسم الشرطة أحمل له الأغراض وسط دموعي حيثُ أنا ابنه الأكبر في الصبيان، كان والـدي رابط الجأش لا يهاب الموقف وطمأنني.

كل يـوم وكل الأمر هـو نوم بلا خروج ولا شيء آخر، بمُجرد وصولنا مركز للشُرطة أسعدُونا بمُفاجأة سارة أن المُحامين بالأمس، نظموا إضرابًا عامًا في جميع المحاكم، حالت دونه انعقاد الجلسات وتم التأجيل ستة أشهر إداريًا، يااااااا الله اللَّهُمَّ لك الحمد والشُكر، وشُكرًا للمُحامين الشُرفاء..

قمت بعدها بعمل سحجات وكدمات في ظهري وذراعي، وتقدمت ببلاغ لقسم الشُرطة أن الخفير اعتدى عليَّ وحررت المُحضر بعد التقرير الطبي وتم الحُكم على الخفير بشهر حبس مع الشُغل والنفاذ، وبمُقتضاه تنازل عن والـدي وتنازلت أنا عنه وانتهى الأمر.

ترددت كثيرًا في العمل في جريدة المُحامين لأنني لا أعي سراديب هـذه المهنة؛ ولكنني قبلت على مضض وأمل أن أترك العمل في أول مُخالفة تسنح ليّ فرصتها ..انخرطت في العمل وصدرت الأعداد

العشرة على خير و ربحت من هذه التجربة كثيرًا.. ماديًا ومعنويًا وتعرفت على مُحامين كبار من أبرزهم نقيب مُحامين الجيزة الذي صار نقيب عام وذلك في عام ٢٠٠٩ م.

إنتهت هذه الجولة الإنتخابيّة وفاز فيها سامح عاشور بالنسبة المُريحة التي وضعته على أريكة المُحامين كنقيب عام رئيس اتحاد المُحامين العرب ..أدناني الأُستاذ حمدي خليفة منه وسمح لي بالتُردد على مكتبه ومُراجعة مقالاته التي تنشر في الصحف الثلاث الأحرار "المسائيّة" الوطني اليوم وكنت أراجعهُم لُغويًا وديسكًا وبلاغة ويُتاح لي التدخُل في فنيّة القول، وكنت أقوم باستقطاع الأخبار ولصقها في ألبوم حتى يحتفظ بها، وكذلك كل الأخبار الصحفيّة الصادرة عنه ومنه، واكتشف في شخصيتي الكثير واطمأن إليَّ مليًّا، وأغدق عليَّ بالأجر الذي استحقه ويزيد، ودافع عنّي في عدة قضايا هامة مُتعلقة بالعمل الصحفي الذي أُمارسه حتى تمت براءتي.

جاء عام ٢٠٠٥ بعد تجربة المُحامين فقررت أن أصدر صحيفة خاصة بي تحمل اسم" حديث الأُمة"، اشتريت الرُخصة من شركة لندنيّة بمقرها بالقاهرة، وحصلت على الموافقات الأمنيّة وصدر منها عددين تجريبيين في أغسطس وسبتمبر، كما صدر العدد الأساسي الأول في أول أكتوبر من عام ٢٠٠٥ مطبوع بمؤسسة أخبار اليوم في مطابعها بمدينة السادس من أكتوبر لعدد خمسة آلاف نُسخة، أحدث ضجة هائلة عند صدوره على كافة الأصعدة خاصة مع انتخابات مجلس الشعب التي كانت مُلتهبة في دورتها هذه، علاوة على تقبل القارئ للنُسخة وبيع (١٠٪) من الأعداد المطروحة بالأسواق وهي نسبته عالية لجريدة مُبتدئة، لم تنل الرعاية الكافية..

دعاني زميلي بالجريدة بدوي تُركي لمُقابلة أحد المُرشحين بشارع شهاب بالمُهندسين، الذي بعث في طلب دعوتنا.

لبيت الدعوة وذهبت مع زميلي ووقفنا في ناصيته شارع شهاب مع جامعة الدول العربيّة وهاتفنا المُرشح" أبوزيد الإسناوي "في دائرة بولاق الدكرور وهو مُدرس أزهريّ، الذي بدوره دعانا لدخول الشارع مع أول تقاطع وجدناه يناديني من شُرفة أول بلكونة، فصعدنا بدورنا السلم، فوجدناه يقف على فوهة الباب المفتوح، وبعد السلام الحار دعانا للدخول، فإذا نحن داخل قصر وليس شقة بالمعنى نفسه، جلسنا فأتانا رجل في زي السقا الذي يسقي الماء من قربته كعندنا في الريف؛ ولكن هذا أشيك بكثير، أتحفنا بفنجان صغير فارتشفنا ما به كشفطة واحدة، وعاود للملء مرة ثانية وثالثة ونحنُ في عجب :

لماذا لا يُعطينا الكأس الكبير مملوء ونتصرف معه كعادتنا!!

ثُم انصرف بعدما علم أننا اكتفينا من الشراب الأصفر الذي علمت بعد ذلك أنه قهوة خليجي؛ وبعد دقائق معدودة وسط استغرابنا وذهولنا، ولم نصل إلى درجة الاستفهام عمّا نحنُ فيه، وما كان أمامنا إلّا الانتظار لنعلم الغرض من الزيارة، ففوجئنا بحورية من الجنة تهلُّ علينا في ملابس سوداء مُلتصقة بجسدها، وهي تشع نور على نور، وشعرها الذهبي المُسترسل، حيتنا بابتسامة حانية، فبدا لنا طولها الفارع وعذوبة يدها التي التصقت بيدي حتى سحبتها في هدوء وسط ذهولي، فإذا بصديقي "أبو زيد" يُعرفها بأنني أحمد صاحب الجريدة، فقالت على الفور : "ما شاء الله، شاب صغير وعندك جريدة، أنا قرأتها حتى الثمالة، وأعجبتني في تنوع أخبارها وتحقيقاتها وألوانها".

قُلت لها : هذا من كرم أخلاق حضرتك ..

- ماذا تُريدون منّي لكي تنمو هذه الجريدة وتكبر وتُصبح يوميّة، وحتى تُدافع عن أنشطتي وأعمالي المزمع قيامها كاستثمار بالقاهرة؟
- الجريدة تحت أمر حضرتك في كل ما تريدينه ونحنُ لدينا جدول بالاحتياجات حتى نكبر سويًا..

قالت : أولًا لابد من توفير مقر مُتميز يليق بهذه الجريدة وبمُسماها الكبير "حديث الأُمة" أُمة العرب جميعًا، أنا أقترح مقر على النيل لأنني أحب أعمل ومشهد المياه يمُر أمام عينيّ لأستريح وأبدع، أقترح أن تأخذ أربعة أدوار في الزمالك مثلًا يكون ليّ ولأشغالي طابق فيهم، وأنا أرفض مسألة الإيجار، أقترح نظام التمليك، لأنه دليل على الجديّة.

قُلت : أعتقد أنه لن يقل ثمنهم عن أربعة ملايين جنيه مصري!

قالت : وليكُن، ولو أكثر من ذلك أنا على استعداد تام لأحول ربح بئر البترول الذي أملكه في الكويت لنشاطي الإقتصادي في مصر!

وأرادت أن نتحدث عن مسألة المُرتبات، وهل هي تصل إلى حاجز المليون جنيه شهريًّا وهي مُستعدة لذلك شرط العمل المُنضبط بساعات مُحددة شريطة لائحة الثواب والعقاب، فهي تؤمن بذلك، أن لك حقوق فعليك واجبات، وفي استحياء شديد قالت :

إن عاداتنا العربيّة هي التهاون والعاطفة مع المُقصر وهذا أحد أسباب تخلُفنا عن الغرب الذي تقدم بعد أن نحي العاطفة جانبًا!!

هُنا تدخل زميلي "بدوي تُركي" ويواليته ما تدخل **فقال**: بعد أن تنحنح وبصق على الأرض، وهي ليست بلاط؛ ولكنها صوف من جلود الخراف تغطي طبقات سجاد تغوص فيه القدم حتى تتيه معالمها، ويذهب الحذاء غاصًّا حتى الثمالة، ثُم مسح بصاقة بقدمه المُتآلفة مع كل عوامل التعرية من طين مُبلل بالماء وفوهات البالوعات الصرفيّة.

وجزء من البلاك الأسود الوارد من ورش الحدادين والسمكريّة وهو يقول "اسمعي يا ست عشان ما تاخدنيش في دوكة ! إحنا أنا وأحمد قالها بدون لقب نطبع هذه الجريدة كلما حنَّ الله علينا بمال، فهي تتكلف ثلاثة آلاف جنيه في العدد، ثُم نقوم بحملها على أكتافنا ونوزعها عند المُعلنين، فمن يُعطينا مائة جنيه في الحال ومن يطلب الأجل، احنا ببساطة عاوزينك تقرضينا ثلاثة آلاف جنيه بإيصال أمانة يوقعه أحمد، ونردهم لكِ حين ميسرة، مع نشر كل ما تحتاجينه من أخبار".

حاولت إيقاف سيل فمه وريالاته وبصقاته بأن "عم بدوي" يُحب المزاح ودائمًا يُحاول أن يضفي على الجلسة نوع من الفُكاهة.

- أحمد أنا مبهزرش! أنا بتكلم جد.
- وأنا بعتبر أحمد ابني، أحيانًا مبيبقاش معانا ثمن المواصلات وبنجيب عيش وطعميّة ونقعد ناكل على الرصيف، وأحيانًا نوهم أحد الناس بمصلحة مُقابل مبلغ؛ لكي نطبع الجريدة ثُم نرده، وأحيانًا نختفي من المشهد علّه ينسى، احنا يا ست هانم ببساطة زي الحراميّة اللي عايزين يعيشوا مستورين، هو اسم حضرتك ايه؟
- أنا سُهيلة النعمان
- بصي يا سُهيلة، من غير ألقاب، أنتِ مثل بنتي ..الكلام اللي أنا قلته من الآخر من غير لف ولا دوران، فين السقا اللي كان بيصب من شوية؟
- سقا؟ أيوه اللي شايل القربة؟
- أيوه "عم محمد" السُفرجي.
- ماله؟
- عاوزينه يصب لنا كاسين، ولا أقُولك.. يا ستي لما أدخل الحمام *قالها وهو يقف ويكح ويشرق ثُم يبصق على الأرض ويهرس بصاقه في السجاد*

- هو أنتَ بتشرب خمرة يا عم بدوي؟
- أنا بشرب خمرة وبيره و ويسكي كمان، أنا صايع بارات، وفي شبابي كنت بشتغل بودي جارد ورا الرقاصات.

دخل "عم بدوي" الحمام ونحنُ في ذهول تام، والسيدة الأميرة الكويتيّة لا تكاد تُصدق نفسها، وكأن لسان حالها يقول "أطلب البوليس للمُتشردين دول" أم انتظر احترامًا لأبو زيد زميلها في الجامعة الذي يُراعيها في دراساتها العُليا بجامعة الأزهر؟ وهو بمثابة أب لأولادها وحريص على مالها أكثر منها، ثُم إنني -كما قالت- إنسان مُحترم وهادئ ورصين ومُشكلتي في "عم بدوي" الذي ضرب كُرسي في الكلوب وفجّر المكان ظلام، ثُم خرج "عم بدوي" وقد علقت المياه بأقدامه وترسب الطين على الطُرقات، وأصبح البهو المرمري أشبه بزريبة مواشي**!!**

- دخلت الحمام في قول **:** يا عم بدوي***** قالتها وهي تتألم*****
- نعم؟
- دخلت؟
- يعني كُنتِ عايزاني أعملها على نفسي**!** الخلاء أوسع من بطني طبعًا *****قالها وهو يستعد للجلوس*، فصرخت في وجهه.
- اتفضل بره، وخد صاحبك معاك **..**غورم في داهية قرفتوني جاتكم القرف، ويا أبو زيد إياك أن تحضر لي زبالات مرة أُخرى معاك إلى بيتي، وهذا هو آخر إنذار**.**

خرجنا نجري قبل أن يلحق بنا السُفرجيّة ويألمنا زجرهم ويلكمنا البواب، حتى توقفنا على ناصية شارع شهاب**..**

****

الفصل الثامن

٢٠٠٤/١٢/٠٤

"بس العلاج والمحسوبية"

بدوي تُركي صديق عزيز وزميل رحلة كفاح وتحدي ونجاح، إلتقيته عام ٢٠٠٠ في جريدة" حديث الناس "التي كُنت رئيسًا لتحريرها، وأصدرتها لمجموعة من مندوبي الإعلانات لهم قُدرة على جلبها، وهُم كانوا يعملون في صحيفة الرأي العام الدولي، وكُنت منتدب لإخراجها في التسعينيات، وصادفت مجموعة من الشباب المُتحمس حصلوا على هاتفي، وبعد فترة اتصلوا بي لإخراج جريدة "أخبار الساعة" ومنها جريدة "أخبار الساحة" حينما أتى إعلان لمندوب بمبلغ كبير، فأراد صُنع جريدة، فقُلت له أقرب الأسماء إلى الساعة هوالساحة بقلب العين حاء، وكُنت أعرف مكاتب تجهيزات مُتعددة أمطرهم بصُحف بئر السلم هذه، كذلك مطابع الأحرار بكوبري القُبة التي كانت تطبع أي جريدة بترخيص أو بدون، المُهم هو أن تحوز نُسخة من كُل مطبوعة تطلع عليها الرقابة، وجميعًا كانت صُحف تجاريّة لا علاقة لها بالسياسة، ثُم وجدت مجموعة أُخرى يصدرون حديث الناس، وآخرين اختلفوا مع أخبار الساعة فأصدروا مجلة "سيارتي" لأن علاقتهم بالأجانصات كانت مُتعددة ويستطيعون أن يصلوا إلى غبّور نفسه!! ثُم اختلف مجموعة معهم صنعوا لهم مجلة "شكماني" وهكذا..

إلتصق بي الأخ بدوي قنائـي الأصـل فاعتبر نفسه بني عمومتي وكان يُناديني :

ابن عمي، ثُم ذهب أدراج الرياح ولم أعثر عليه إلّا مُصادفة في أخريـات عـام ٢٠٠٤ وأنا أدخل مُستشفى الهـرم لزيارة سائق ميكروباص تعرض لحادث أثناء رحلته إلى الإسكندريّة قادمًا من الصعيد عند أول الصحراوي، يمتني بصلة قرابة قوية إلى درجة رابعة مع أُسرتي، فطلب منِّي أبي زيارته باعتباري في القاهرة "أسُدَّ عنه" بتعبير قريتنا..

وأنا ذاهب تحصيل حاصل أعلق في يدي كيس فواكه وفي الأُخرى مائة جنيه إعانة وواجب للظروف الطارئة، أثناء دخولي المُستشفى وجدت من يستوقفني ويناديني : **"ابن عمي"** ما الذي أتى بك عندنا إلى هُنـا؟ فكُنت كـمن صك وجهه وهـو سعيد :باداووووييييـي، بالحُضن يا حبيبي، أنتَ فين يا بني من زماااااااان؟

قال : في الدُنيا يابن عمي؛ ولكن هل لديـك مريض عندنا قادم لتزوره؟

*عجبت من كلمة عندنا المُتكررة على لسانه وكأنها عزبة أبيه *!

قُلت : ابن عمي عنتر عمل حادث..

قال : بس بس، عنتر الصعيدي!

قُلت : رُبما!

قال : لا عليك، هـو كان عليه مزاد على القهوة أمس.

قلت : مزاد!! ماذا نقول؟

قال : لا عليك لا عليك، تعالى فقط نزوره بداءة ثُم نتحدث..

دلف بي سلالم وممرات ومنحنيات حتى وصلنا إلى عنبر عظام **(١)** فإذا بالمُمرضات جميعًا **:**عم بدوي، عم بدوي، وهو يقول لهُم **:** غوروا من وشي جاتكم شوطة تريحنا منكم**!!**

القرار فين يا عم بدوي؟ فيقول **:** لسه شوية، بُكرة.. ويأتي دور العُمال ونفس الطلب، ثُم الأطباء الجُدد **:** امتى النقل يا عم بدوي؟ فيقول **:** لسه شويه، إما يجي دورك**!** الوزير مشغول شوية، وكذلك الموظفين، فلكُل واحد منهُم مصلحة وأفراد الأمن والحراسة والمواطنين وكأن عم بدوي هذا هو المجالس المُتخصصة الطبية، أو هو السكرتير الخاص للوزير**.**

وصلنا سرير عنتر، وجدت حوله عشرين زائرًا غير أُسرته، وهو جالس على سريره يغسل وجهه بالصابون ويُنشف بالفوطة، وكأن شيئًا لم يكن، وإذا بهم يُحيُّون عم بدوي واتضح أنهم يعرّفونه **:** سعادة الباشا**!!** فيردهم **:** لولاي امبارح كنتُم رحتم في الكازوزة**!!** أنا حرصتُكم في القهوة، وهُم يقفون أمامه مكتوفي الأيدي مُطأطئ الرأس، ونسوا تمامًا حضوري**..**

ثُم قال لهُم **:** على فكرة أنا لسه حالًا عارف أنكم قرايب الباشا **..** الباشا**!!** ونظروا إليَّ في وجوم**!!** أحمد بيه يا سفرجية يا براري ياللي بتاكلوا مع المواشي وتناموا مع البقر يبقى صديق معالي الوزير **..** معالي الوزير**!!** أيوه يا نوَر**!!**

ووسط هذا المشهد لا أكاد أصدق نفسي ولكنني قُلت **:** أنا غلبان يا بدوي بك**!** فردني **:** غلبان**!!** سعادتك مُتواضع بس، والناس الفلاجين دول مش عارفين قيمتك، اللي كُنتم بتدوروا عليه هيحصل النهارده يا حوش**!** وإذا بهم يلتفون حوله ويُقبّلون رأسه في عناق وهتاف وهو

يزجرهم : بعدوا عني ريحتكُم عرق وقرف، أنتم مابتستحموش جاتكم البلاوي!!

وأنا يزداد ذهولي ويتلون وجهي مما أري من مشهد أمامي، فهؤلاء أقاربي دائمًا مناخيرهم إلى أعلى ومش شايفين أي حد معاهم؛ ولكنهم الآن أمام عم بدوي؛ رعاع وخدمة مُجتمع .. يقول عم بدوي وهو مُستعد لمُغادرة العنبر بعد ساعتين سيتم تجهيزك للعمليّة، عليك بالصوم من الآن، كان دورك بعد شهر وحضور سعادة الباشا قصَّر المسافات وقلّصها إلى ساعتين، ثُم دلفت معه إلى بدروم تفوح منه رائحة جميلة وأنا في أشد الحاجة إلى طعام .. إنه المطعم الخاص بالمسشفى للتمريض والأطباء، نظيف جدًا وبه عمال وطهاه يرتدون البالطو الأبيض، وسرعان ما رحبوا بعم بدوي وأقبلوا عليه لمُحاولة الحوار، فقال لهُم : أنتم مش شايفين معايا الباشا، خلص الكلام .. هاتوا وجبتين سخنين عليهُم لحمة وفراخ بسُرعة..

- حاضر يا عم بدوي

وفي الحال أتانا سرفيس كبير عليه طعام ساخن من خُضراوات وطبيخ ولحوم وفراخ وكأننا في مغارة علي بابا!!

- بالهنا والشفا يا سعادة الباشا * هكذا قال العُمال*
- فردهم عم بدوي :عارفين كل الخدمات الي بتجيلكم دي وأنا باعملهالكم ؟ سعادة الباشا اللي بيخلصها لي في الوزارة، علشان هو في مكتب الوزير بس مُتنكر ومتواضع .. غوروا شوفوا شغلكم جاتكم البلاوي!

فيجرون من وجهه، وتركني أنعم بالطعام وقال لي : سأغيب عنك خمس دقائق تكون خلصت أكل وبراحتك، ولو عاوز أي شيء تاني ينزلك يا باشـا ..

لم يكن لدي من الوقت لكي أسأل عم بدوي عن كل هذا المقام الرفيع، وكيف سيفي بوعده في انجاز عمليّة عنتر خلال ساعتين و دوره يتطلب أسبوعين ويحتاج إلى جراحة دقيقة ومسامير وشرائح لتهتك في الأرجُل والحوض والظهر جراء انقلاب السيارة بهِ وهو سائق بسرعة جنونيّة..

رجع عم بدوي وذكر لي أن كل شيء على ما يُرام وأتى بالأطباء من غُرف نوم زوجاتهم؛ لكي يقوموا بالعمليّة الجراحيّة لـ"عنتـر" بعد أن هاتف مُدير المُستشفى سرًّا بأن صحفي من الوفد أتى لكي ينشر سلبيات المُستشفى بناءً على شكاوى، وهو قريب عنتر.. وبدوي قام بدوره في حماية المُستشفى في راحة المُدير باللازم، وأخذ صحفي الوفد في دوكة وخرَّجه من المُستشفى ووعده بإصلاح الأمور، ولأنه وهـو أصدقاء؛ فقد أوقف رصد المسالب والحمدُلله تمت على خير ولابد من إجراء عملية عنتر الجراحيّة بأسرع وقت حتى لو أن الصحفي عاد في المساء ونحنُ الآن عصرًا، تكون قد أُزيلت أسباب الإستغاثة، إذاً عم بدوي ضرب عصفورين بحجر واحد، أوهم مُدير عـام المُستشفى بأنه حريص على مصلحته، كمـا أنه قضى مصلحتي وله جميل مدى الحياة في أنني سأظل كبيرًا في نظر أقاربي حينًا من الدهر، وتصدق إشاعته أنني فعـلًا صديق الوزير .. والحقيقة أنني لو تحركت قليلًا لكُنت على صلة بالوزير، فـوزير الصحة –آنذاك- كان نائب رئيس جامعة عين شمس للدراسات العُليا والبحوث وقبلها كان عميد كلية الطب،

وعندما انتهت فترتي رئيس الجامعة من (٢٠٠١ – ١٩٩٥) تولى هو رئاسة الجامعة لمُدة ستة أشهر ثُم صار وزيرًا للصحة، وقد قابلته أكثر من مرة في مكتب رئيس الجامعة الذي كان من دمنهور، وكان يغتر ببلدياته البحاروة، وكان يهتم بأخبار دمنهور، لأن جيرانه وأهله عندما يذهب إلى قريته الغلالبة يُقابلونه ويذكرون له ما نُشر عنه في أخبار دمنهور، فيُسر لذلك سرورًا عظيمًا، وكان يُدنيني منه منزلة وكان يلفت انتباه كل من في المكتب أنني صحفي بلدياته أكتب عنه فيقرأ أهل قريته، فيُعظم قدري كل من عنده كالنائب الذي صار وزيرًا للصحة وعميد الطب الذي صار مُحافظًا للشرقيّة وعميد الصيدلة ابن مُديرية التحرير الذي كان يُرحب بوجودي و د.الناقة الذي كان يُرحب بي لأنه يعرف قدر الجريدة..

يظل عم بدوي عندي حتى رحيله ٢٠٠٩ وبعد رحيله شيئًا مذكورًا، لا يُمكن بأي حال من الأحوال أن أغير نظرتي فيه ولو على كنوز الدنيا كلها، وأنه كان ملك القرارات على نفقة الدولة وكان يأتي بالقرار الذي يستعصي على مدراء المُستشفيات وعُمداء الكُليات؛ لذلك كان الكل يلهث وراءه!!

وكان العُمال والمُمرضات والموظفون يرتزقون من فضله ببيع القرارات للمواطنين الغلابة، لأنهم ببساطة لا يعرفون الطريق، حتى إنتهت هذه التجارة بحلول ثورة ٢٠١١ وأصبحت القرارات تصدر من المُستشفيات عبر الإنترنت لا دخل فيها لبشر..

كان عم بدوي مريض بتليف الكبد الذي نال منه حتى انتهى، وكان هو يعلم ذلك ويعلم أن أجله قريب وأنه يعيش على الأوردة

والطحال بعد أن تليف الكبد تمامًا، لأن المريض يظل فترة على قيد الحياة لاعتماد الجسم على الدم المُباشر ودور الطحال في ذلك حتى يتضخم بعد شهرين ولأنه مخزن الكبد الذي يودع فيه لتران من الدم للطوارئ في حالة الجوع أو الصوم أو الإضراب عن الطعام، وأن النخاع هو الذي ينظم الجسم كله وهو حبل شوكي داخل العمود الفقري، تعلمت الطب ومداخله من عم بدوي وحضرت مؤتمرات طبيّة عديدة، كنت أرى الأساتذة الكبار الذين يُقدمون أنفسهم على أنهم ناقشوا مائة رسالة ماجستير وخمسين رسالة دكتوراه، فعلمت من ذلك اليوم أن الإشراف أعمق من المُناقشة وأن رسائل الماجستير أكثر من الدكتوراه، ويكتفي الطبيب عادة بالماجستير ولا يقدم على الدكتوراه سوى البارع الذي يملك الوقت والمال فيُصبح استشاري إذ لم يكن مُعينًا بالجامعة.

وأن الدبلوم يحصل عليه جميع الأطباء ليتخصصوا في قسم بعينه يمر به حتى المُعيدون أنفسهم، ومن خلال معلومات عم بدوي نجحت في قيام علاقة بيني وبين طبيب أطفال كبير بالقصر العيني، هو أُستاذ ورئيس قسم، حينما كان يوقع الكشف على ابنتي عام ٢٠٠٦ وأثناء الكشف ألقى سؤالًا كأنه يُلقيه على نفسه: تتوقع كام مرتب عميد شرطة أمن دولة في المطار؟

- **قُلت**: سبعة آلاف جنيه.
- **فقال**: صحيح، أنتَ بتشتغل ايه؟
- **فقلت له**: صحفي* هُنا استطرد في الكلام بأنه يُريد أن يبني الدور الرابع في فيلته بمدينة نصر وأن مهندسي الحي يُمانعون، رغم أنهم وافقوا لغيره من قبل، ولهم طريق مُعين ويخشون منه*

- **فقلت له**: حضرتك تبع مدينة نصر شرق أم غرب؟
- **فقال**: شرق.
- **فقلت**: عند المهندس عاطف وأُسامة؟
- **قال**: فعلًا هما المهندسان المُعينان.
- **قلت له:** لا عليك، سوف أجعلهما يعملان طريقة معينة منها تبني الدور الرابع لأنهما يملكان الحل الذي لا يملكه غيرهما.
- **فقال**: أشرفت على رسائل أولاد وزراء وكبار ولم يخدمني منهم أحد.
- **فقلت:** ستتم خدمتك بدون مُقابل ولا تقلق**..**

وقابلت المهندسين المعنيين وكانت لي بهما علاقة، فقاما بفتح بابين بالدور الأرضي وإدخال سيارة نصفها فقط، ثُم تم البناء وبعدها أغلقت النوافذ وعاد الأمر كما كان، والطريقة هي فتح جراج في الدور الأرضي تتم زيادة دور في الفيلا، وبعدها كأن الأمر لم يكن **..**وذلك كله حيل أخذتها عن عمي بدوي – رحمه الله لا يستعصي عليه حل-

كان بدوي أيضًا صاحب فضل في تعريفي بأباطرة مُحافظة الجيزة وعلائلات الهرم وكيفية الصراع بينهم، وكان الكل يعرفه من رئيس مجلس محلي المُحافظ وأعضاء مجلس الشعب والشعبيين، وله حضور عندهم جميعًا ولكنه كان قليل الحظ يعيش في حجرتين وصالة بحفائر بولاق الدكرور (زنين) وله ولد وبنت، كنت أعرفهم وكانت زوجته سيدة فاضلة تعرفني وتستقبلني عندما أزوره، وحدث يومًا أن زرته في رمضان عندما غاب عن أعيني عامًا تقريبًا لا أعرف له أخبار وذلك عام ٢٠٠٩ ، وعندما طرقت بيته فتحت لي زوجه الفاضلة وأدخلتني

عليه فإذا هو في غيبوبة كبدية لا يفيق إلّا على الإرتجاع الدمومي، ثُم يغطُّ في غيبوبة دون طعام أو علاج أو شراب لمدة ثلاثة شهور، فبكيت لهذا المشهد المأساوي الذي لم أكن أعتاده عليه وأنه لم يحس بوجودي وعيناه في غيبوبة الأموات، ثُم خرجت من عنده أبكي وأرثي حاله، وأنا لا حول بي ولا قوة، وبعد أسبوع قررت أن أعاود الزيارة، فطرقت بيته، ففتحت زوجه الفاضلة ورأيتها متشحة بملابس الحداد وفي حالة حزن وكرب شديدين، فاحتسبت ذلك مكروهًا لأحد أقاربها، فطلبت مني الدخول أو آذنتني بالدخول، فسألت عن بدوي : أين هو؟ فقالت : يا أُستاذ أحمد، تعيش أنتَ..

- كيف هذا؟ لا إله إلّا الله، إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولماذا لم تخبريني هاتفيًا؟ ومتى حدث هذا؟
- بعد زيارتك أول مرة، في اليوم الثاني فارق الحياة في رمضان وهو صائم عن الزاد وعن الدنيا كلها..

وأرشدتني إلى قبره في مدافن الصدقة بكفر الجبل، لأنه أوصى بذلك ولكونه لا يملك مقبرة، فذهبت إلى قبره وبكيت وجلست ساعتين أنعي حظ الأيام على رجل صادق الحس وصادق النوايا، عليم بكل شيء، يشغل حيزًا كبيرًا في حياتي، مات فارس الكلمة الذي كان يريح المقال وكنت أظنه يسرقه من أحد ولكنني تأكدت صدق كتاباته من مقارنات وعلمت أن الموهبة تواتيه من حين لآخر، فيكتب كما لا يكتب أحدًا.. ودعته في قبره وتمنيت في قرارة نفسي أن يسامحني لأن الأحداث المرتبطة بيننا كثيرة وأخطأنا في حق بعضنا، وأن خطواتي قبل وفاته جاءت بنداء الله تعالى، وقد ذكرت لي زوجته أنه أفاق قبل

الموت وعرفته بحضوري له، فقال لها :أحسست به وهو موجود ولكنّي لم أستطع الحديث معه؛ ولكنني رأيت فيه الشهم النبيل والأخ الصادق، فسلامي له إن جاء ثانية ثم راح في غيبوبة لفظ فيها أنفاسه الأخيرة وجاء عيده في قبره عند ربه - رحمة الله عليه - .

بعد وفاته بعدة شهور هاتفتني سيدة من رقم لا أعلمه وقالت لي أنها زوجة بدوي وأم أولاده، فقلت لها لست أنتِ فأنا أعرف صوت زوجته وأم أولاده وزُرتها فقالت : نعم، هي زوجته وليست أم أولاده، وأنا طليقته وأم أولاده وأعمل موظفة في محكمة شمال القاهرة وله منّي ولد وبنت، وكان يقول لي أن عمله معك بالجريدة له معاش ومعاش نقابة فأولاده يستحقونه، ولما عجبت وكيف أولاده من السيدة الأُخرى كانوا يُنادونه بالأب!! فقالت : هم من أب آخر ولكن مناداته مجازًا لأنه رباهم وعاش معهم بعد أن طلقني وهي كانت تعرفهم وعلى صلة بهم..

عجبت، فجريدتي خاصة لا تملك حق عضوية النقابة لمحرريها وأن النقابة العُمالية لم نداوم على الاشتراك فيها، وحزنت حُزنًا شديدًا، وتذكرته يوم أن أضاع علينا جميعًا فرصة ذهبية بالملايين كانت كفيلة بأن تجعلنا نعيش حياة زاهية نحنُ وأولادنا، وعجبت أيضًا أنه طوال حياته وطوال رحلتي معه لم يبح بسر أولاده وبحياته الخاصة رغم أننا كنّا كواحد في نفسين، وعلمت من أم أولاده أن ابنه وابنته يملكان نفس موهبة الكتابة، فقد ورثاها عنه، ولو أتيحت فرصة أمامي لإفراغ ما لديهما من موهبة على الأوراق أبلغها، ووعدتها خيرًا.

وضاع هاتفها منِّي، ولم تهاتفني ثانية لأعلم أخبار أولاد بدوي ثانية، ورحت أبحث عنها في كل مكان ذكرته لي في محكمة شمال القاهرة، فلم تذكر لي اسمها، أو ذكرته ولم أحفظه! وبكيت من شدة الألم، فلم يكن قانون كفالة وكرامة تم إقراره بعد!! ولم يشهد بدوي ثورة يناير لأتعلم منه، فكان سياسيًّا بارعًا ومُحللًا حكيمًا، لكل الأحداث المحيطة بالبلاد، وكانت له رؤية ثاقبة، إلّا أنه شقى بعلمه كما شقيت به أنا، وكان مؤهلة ليسانس آداب ومتعلم ومثقف كأستاذ الجامعة، ولكن حظه عاثر لم يهنأ بالحياة ولا الراحة، وكان يحمل حقيبته في كتفه كل يوم ويجول في كل مكان، ويعرفه الجميع ولكن كل ذلك ذهب سُدى، وراح الرجل الشهم الحكيم القويم الذي رفص النعمة الكبرى يومًا ، وعلل ذلك بعدها بقوله : يا أحمد لو أن الله أراد بها ما ردها بدوي ولا جد بدوي!! سبحانه وتعالى كل شيء عنده بقدر، مات بدوي تركي ودُفن في مقابر الصدقة كما دُفن قبله بخمسة وخمسين عامًا خليل مُطران..

****

الفصل التاسع

٢٢-٤-٢٠٠٨

"حرب فساد الفساد"

إلتقيت بصديق عزيز يعمل مُحررًا بمجلة الإذاعة وتم تعيينه في ظروف أشبه بدعوات ليلة القدر المقبولة..

ناجي أعرفه مُنذ سنوات، فقد استأجره مُدرس كنا نسكُن معه في شقة بالدقي، لكي يطردنا بدون ملابس، فأتى معه إلى الشقة وجلس على الباب من الداخل وأمسك بشومة غليظة مُدلاة منها مسامير سامة، الضربة الواحدة منها تؤدي إلى عاهات مُستديمة وغير مُستديمة، وطلب من الصديق أن يشير إليه بحضورنا من على السلم فيقوم بضربنا أنا وصديق آخر، ضربًا مُبرحًا، وكان ناجي في عُنفوانه أقرب للمُلاكم الذي لا يُهزم، وعندما صعدنا السلم وأُشير عليه بقدومنا، استعد للمعركة وهو مغمض العينين، وتشاء عناية الله أن يفتح عينيه فيفاجأ بي في المُقدمة، وإذ بالعصى تقع من يديه وهو مصوبه تجاهي ويحتضنني بحرارة شديدة وهو يردد :هو ده اللي أنتَ عاوز تطرده يا عُمر؟ فقال عُمر : نعم هو .. فإذا بناجي يقول له بل أنتَ الذي ستُطرد من هُنا لأنه صديقي وصديقه الذي معه صديقي!!

إنتهت المؤامرة، وسكت عمر وسكتنا جميعًا وعشنا رفقاء في شقة الدُقي شبه المتواضعة في كل شيء، من أساس وأدوات ومفروشات؛ ولكنها على أي حال في الدُقي وقريبة من وسط البلد، ومياهها نظيفة وريحها مُعطر بالراحة والهدوء .. دالت صداقتي بناجي ردحًا من الزمن، نلتقي على فترات ونختفي فترات، حتى علمت بمسكنه في أبي

قتادة، فذهبت إليه للاطمئنان، وكان قد تم تعيينه مُحررًا بمجلة الإذاعة مُنذ فترة، وأموره الحياتية شبه مُستقرة.

بعد الترحيب عزمني على الطعام بإخراج طبق مملوء بالباذنجان المقلي وبقايا الطعمية وصوابع البطاطس المقلية يغطيه رغيفين من العيش المُدعم، شكرته في أدب شديد لأن الطبق مستخرج من تحت مرتبة سريره وكان مغطى ببطانية أشبه بغطاء الأبقار في الشتاء لونًا ورائحة .. أعاد طبقه في مكانه وهو شديد الترحاب بي وعندما علم أنني استقل المترو بالتذكرة من الشباك، اتصل بأمين شرطة أن يحضر لي تذكرة مجانية سنوية، يعمل هذا الأمين في شرطة المترو، وقد ألح عليه بأكثر من تذكرة هدايا، فإذ بناجي يرفض رفضًا باتًا بأن المطلوب تذكرة واحدة فقط! و تصل على عنوان حجرته بعزبة أبي قتادة..

تقابلنا أواخر عام ٢٠٠٧ في وقت قد ازدهرت الحياة معي بالجريدة حينما حادثني في أكتوبر من هذه السنة صديق قديم كنت عاونته في إصدار مطبوعة في بئر السلم مُنذ سنوات، ونجحت معه نجاحًا كبيرًا، حيث كان لديه قدرة على جلب الإعلانات بتقليد أصوات فنانين وكبار رجال في المصالح العامة، فيأتيه الإعلان سهلًا..

علاء: إزيك يا أحمد، وما هي أخبارك؟

أنا: تمام يا صديقي، كله بونو..

علاء: أنتَ عندك جريدة يا أحمد؟

أنا: الحمد لله عندي جريدة وأصدرها من آن لآخر..

علاء: طيب تمام، هل لديك عدد حديث للصدور؟

أنا: نعم، لدي عدد حديث صدر في سبتمبر الماضي وبه إعلانات جميلة والحمد لله

علاء: طيب تمام، انتظرني لأُقابلك الليلة على مقهى حرافيش فيصل كي اتحدث معك..

وجاءني علاء حسب الموعد المربوط وجلسنا نحتسي الشاي والشيشة ونتحدث طويلًا ثُم أعطيته العددين اللذان طلبهُما وأمري نشر .. وفي اليوم التالي تقابلنا في نفس الليلة على نفس المقهى، فأعطاني صور أمرين النشر موقعان ومختومان:

الأول: إعلان من شركة "مارينا" على أن ينشر نصف صفحة أولى بـ **(١٨)** ألف جنيه.

الثاني: ينشر ربع صفحة أخيرة بـ **(٧٠٠٠)** جنيه ويُمكن توسيعه إلى نصف صفحة.

ثُم أخذت معي عدد ٢ سيديهاية وكان العدد سيصدر، سيصدر سواء بالإعلانين أم بدونهما لأنه يغطي تكلفته من التوزيع، وتم صدور العدد وذهبت إلى شركة جروب عند سنترال ألماظة وسلمت النسخ والفاتورة، وحصلت على المبلغ نقدًا، ١٨ ألف جنيه منقوص ٢٪ قيمة الضريبة والدمغة، وطرت فرحًا، فرحة لا يسعني فيها أحد، وكذلك إعلان أسمنت العامرية حصَّلت سبعة آلاف جنيه بشيك صرفته من أحد البنوك الإستثماريّة، كما حصل هذا الزميل على القيمة النسبية التي اشترطها وقدرها ٤٠٪ نقدًا وشكرته على صنيعة بعد أن طلب منّي التعاون المُشترك على أن يأخذ عمولة مُقدمًا وصدقي معه هو الذي سيدوم المُعاملة ونصحني بأن أحوذ مكتب مُستقل للجريدة ووعدني أنه سيجلب الرزق من أرزاق العاملين معي، فمن يوسع يوسع الله عليه!

تواعدنا خيرًا ومضت الأيام سريعة، ولم نتعاون بعد هذه المرة ولم نتقابل وحالت الظروف بيني وبينه.. بدأت تأتيني أخبار سلبيّة عن تعليم الجيزة ومدارسه وإداراته وكمية الفساد التي إنتشرت والمحسوبيّة التي خلفها منصب وكيل الوزارة بالجيزة نبيل الذي كان في الوزارة يترأس الإدارة المركزيّة للتعليم الإعدادي.. وحقيقة الأمر فقد تابعت أنشطة مُديرية التربية والتعليم بالجيزة مُنذ نعومة أظافري الصحفيّة بمُرافقة صبحي جاد وكيل الوزارة الذي تقاعد عام ١٩٩٥ فخلفه محمود متولي القادم من منصب مُدير عام إدارة جنوب القاهرة التعليميّة، وبقدر حماسة جاد للإعلام وحفاوته، بقدر حذر متولي وحيطته من أي خبر يتم نشره وبالأحرى كان يمقت النشر ويهرب منه كثيرًا ويرفض منح المُحررين صوره الشخصيّة بدعوى أنه كسول جدًا في هذه النقطة إلى درجة أنه لم يُجدد بطاقته الشخصيّة إلى العائلية مُنذ فترة رغم تلفها لعدم توافر صورة شخصية له، وانتهى بيني وبينه التعامل والتعاون وأخذت في نشر كل سلبيات المُديريّة بمدارسها وإدارتها المُتنوعة حيث حُجبت عني الإيجابيات.

ولم أرَ محمود متولي إلّا يوم تكريمه لإحالته للتقاعد عام ١٩٩٩، في حفل أُقيم له بمبنى اتحاد الطُلاب بسفنكس العجوزة وهو يبكي وعيونه تدمع كالطفل الذي فقد أمه في السوق، كم كانت لحظة فارقة في حياة محمود متولي والذي تم التجديد له عامين بعد الستين لنجاحه في العمل وصرامته وشدته، تولى عبد الفتاح عبد السلام بعده فترة ثُم رقى إلى مُدير مديرية تعليم القاهرة والحقيقة أن جميع هؤلاء هم تلاميذ طلعت الليثي ومدير مديرية التعليم بالقاهرة حينما كان مقرها في مجمع التحرير قبل التسعينيات!

بدأت نشر مُسلسل الفساد عن تعليم الجيزة عـام ٢٠٠٨م وانتهى بتدبير مكيدة لنا في مخلب قط هو مدير العاملين بغرب ، الذي استطاع أن يوقعنا في غياهب الشرك بإيهامنا بنشر إعلان مدفوع الأجر كتهنئـة للمسئولين بمناسبات عديدة، وهو أمر وارد وصحيح ومُعترف به، وإذ به يُدبر كمينًا لنا وأُلقى القبض علينـا من قبل مباحث الأموال العامة واستمر التحقيق **(٤٥)** يوم وتم الإفراج بعدهم وتبرئتنا من القضاء عام ٢٠١٠م.

إن هـذه التجربة المريرة التي عشتها وعاشها معي صديقان من تعليم الجيزة لاشتراكهمـا في الواقعة، وتم الإفراج عن صديقي القديم ناجي لـعدم معرفته بالأحداث وحماية النقابة له من أمور كانت تُدبر للشُرفاء المُحاربين للفساد، وبعد كل هـذا يقول القضاء كلمته وينتهي الأمر وتظل الآثار المُترتبة على هذه الواقعة تحُزُّ في نفسي سنوات، إلى أن تولى العريني منصب مدير مديرية التعليم بالجيزة وهـو عضو مجلس نقابة المعلمين العامة عن الوادي الجديد، وهو رجل عرباوي أصيل استطاع أن يقضي على جزء كبير من الفساد في تعليم الجيزة ويُحارب مراكز القوى ويقضي على أوكارهم وتكتلاتهم بقفاز عرباوي لا يلين..

تذكرت معه على الفور الدكتور سيد سيف أُستاذ أمراض العيون بطب القاهرة ابن الوادي الجديد الذي كان يتخذ عيادة خاصة له بشارع شريف يتردد عليها المئات يوميًا، وحينما سافر رئيس مصر الأسبق إلى إسبانيا للعلاج من مضاعفات وقصور في عينيه، فاجأه الأطباء هُنـاك بأنهم تلاميذ الدكتور سيد سيف الذي يتلقون عنه العلم والتعلم في أمراض العيون، وعاد وبعث في طلبه وتم علاجه بوسائل أفضل من إسبانيا رائدة علاج أمراض العيون في العالم!!

أيضًا كان الدكتور أحمد عبد العزيز أشهر أطباء مصر في العظام وطبيب النادي الأهلي يعالج رئيس سابق لمصر بعدما يحملونه بطائرة هيلوكوبتر إلى منتجعات الرئاسة في أماكن عديدة، رغم أنه طبيب شاب في هذه الآونة؛ ولكنه شديد البراعة، كذلك كان الدكتور عبد الرحمن الزيادي أُستاذ أمراض الكبد المشهور بطب عين شمس وصاحب مركز طبي كبير بالدُقي الذي حارب ظاهرة علاج الكبد بالحمام والتي شاهدتها على يد صديقي الطبيب محمود العبد الذي كان يغمس مؤخرة الحمامة ذات الثلاثة أسابيع في عمرها في سرة الإنسان!! فإذا قاومت الموت بشدة يكون الإنسان مريضًا في هذه الحالة بالفيروسات الكبديّة، وإذا لم يحدث لها مكروه وظلت على حالتها، يصبح الإنسان سليمًا..

حاول العبد إثبات ذلك ولكنه حورب من أباطرة الدواء الذين يصدرون إلى مصر علاج حقن بالمليارات سنويًا، ولا يمكن المساس بمركزهم، وقد تنبه المسئولين مؤخرًا من هذه الظاهرة وبدأت الدعوة بمُحاربة أمراض الكبد والقضاء على الفيروسات، ونجحت الحكومة في جعل مصر بلا وباء كبدي ووفرت المليارات وصحة المواطن.

الحقيقة أن مدخنات ومخلفات مصانع الأسمنت والحديد هي التي تجلب الأمراض الوبائيّة، وقامت أمريكا و أوربا بغلق جميع مصانع الأسمنت والحديد والسيراميك مُحافظة على صحة المواطن الثروة الأهم الأهم لديهم، واعتمدت على الاستيراد من دول نائية في بلاد الشرق الأوسط.

وظهرت مُعالجات كثيرة ضد أوبئة هذه المصانع عبارة عن فلاتر تطرد الأتربة دون جدوى.. ومما يعلي شأن القول في ذلك أن أسعار الشقق السكنيّة في المعادي يزيد أضعاف أضعاف أسعار شقق حلوان وضواحيها نظرًا لخلو المعادي من هذه المصانع واتجاه الريح الذي ينزل بثقله على حلوان وضواحيها فيصيب بالأمراض، كما يصيب واجهات عمارات الإسكندريّة وشققها بالتصدع.

أعود إلى القول في نقابة المحامين وفي عام ٢٠٠٩ وبالتحديد الفاتح من يونيه أعلن المُستشار رئيس محكمة جنوب القاهرة فوز الأستاذ حمدي أحمد محمد خليفة بمنصب نقيب المحامين لتغلبه على أقرب منافسيه في جولة الإعادة، الأستاذ سامح عاشور بفارق سبعة آلاف صوت، حيث حصل على أكثر من ٣٦ ألف صوت، بينما لم تتجاوز أصوات عاشور حاجز الثلاثين ألفًا بقليل، كانت ليلة من ليالي ألف ليلة وليلة، وكان أكبر المُتفائلين لا يصدق ما حدث وأن أكثر الناس تشاؤمًا ما كان يصدق فوز خليفة علي عاشور، انتهى الأمر بإعلان النتيجة، وذهب عاشور إلى خلوته وفوجئنا بظهوره بعد ٢٤ ساعة على الهواء مُباشرة مع مُنى الشاذلي في برنامجها الأشهر (٩٠) دقيقة، حقيقة ترك هذا اللقاء الحزن على وجوه كثيرين أن يظهر الفارس في صورة المهزوم، ويعترف بأنها إرادة المُحامين، ويتقبل بالنتيجة بصدر رحب.

وعلى الجانب الآخر عاش خليفة وأنصاره جو الفرح والمرح على كل شاشات الفضائيات، وازدانت النقابة بالمصابيح، وتم ذبح عجل كبير على بوابة النقابة ابتهاجًا بنصر من الله والفتح القريب، وحدث أن جاء باراك أوباما إلى مصر وخطب في دول العالم الثالث من القاهرة بل من جامعة القاهرة بقاعة الإحتفالات الكبرى في يونيه ٢٠٠٩ ، حيث وعد العالم الثالث بمزيد من الحُريات ولابد من تطبيق العدل والمُساواة على الجميع.

حدث أن يُدعى حمدي خليفة نقيب المُحامين الجديد إلى الحفل وسلم على أوباما يدًا بيد وهنـأه بالمنصب الذي يعُدُّه الأمريكان والغرب من أرفع المناصب تجاه حقوق الإنسان وانتشار الحُرية تحت راية العدل في كل الأرجاء، ومع نجاح حمدي خليفة زاد نفوذ المُحامين اليسار في الظهور بعد الخمول، وتبوأ بعضهم مناصب في مجلس النقابة كـاللجنة الإعلامية ولجنة الحريات وغيرها، وبدأ كبيرهم محمد الدماطي في الظهور بعد مرض أحدهم، لكبر سنه وإعافته الحركية التي وصلت إلى حد عدم قدرته على اعتدال ظهره سوى بمرافقين، ومع ذلك كان له حضور اجتماعي خاصة في العزاءات والمُناسبات الشجيّة.

إن دور نقابة المُحامين كـتنظيم نقابي بدأ في نوفمبـر العشرين منه عـام ١٩١٢م برئاسة سعد باشا زغلول وزير الحقانية أول اجتماع للمُحامين البالغ عددهم آنذاك (٦٠٧) مُحام مقيدين أمام المحاكم الأهلية، حيث كان هُنـاك في مصر ثلاث هيئـات قضائية) المحاكم الأهلية التي تحاكم نزاع المصريين فيما شجر بينهم، المحاكم المختلطة التي تحاكم نزاع المصريين مع الأجانب – المحاكم الأجنبية، التي تحاكم نزاعات الأجانب على أرض مصر.

وكانت مهنة المُحاماة من المهن المنبوذة مُجتمعيًا، والتي نشأت عن مجلس تجاري الإسكندرية عـام ١٨٤٥م الذي أباح توكيل الخصوم في النزاعات الأولية لآخرين موكلين عنهم، ويشترط في الوكيل اللباقة والفصاحة والبيان ولا يشرط المؤهل الدراسي، ومنها شُرع في التوكيل عن المُتخاصمين في النزاعات القضائيّة، حتى لا يحدث بينهم اشتباك أثناء نظر قضايا النزاعات، وكان سعد زغلول يمتهن هذه المهنة وهو

يتوارى وراء الحجب.. وقد حرّم الشعب المصري مصاهرة هؤلاء واختلاط دمائهم بدماء المصريين، حتى أن إبراهيم بك الهلباوي تزوج وصيفة من القصر الخديوي لرفض أي مصري مصاهرته، كذلك كانت الصحافة من المهن المنبوذة أيضًا حيث تزوج على.الشيخ على يوسف من بنت الشيخ الساداتي ونودي بالتفريق بعدها لعدم الكفاءة، كما أن الروائي الذي يكتب الرواية كانت مهنته منبوذة أيضًا فقد أختشى الدكتور محمد حسين هيكل وتحرج أن يكتب اسمه على أول رواية عربية حقيقية هي زينب ١٩١٤م وكتب عليها فلاح مصري، وإزاء هذه الانحرافات المُجتمعية في قواعدها، اعتزم سعد باشا زغلول إشهار أول تشكيل نقابي للمُحامين في صورة تنظيمية ترى النور لكي تحاسب المنحرفين من أرباب المهنة، وتعلى قدرها مُجتمعيًا، ويخضع المحام لإجراءات تنتهي في نقابته عوضًا عن مكتب النائب العمومي..

ترك سعد زغلول الاجتماع بعد اطمئنان الأعضاء للحضور وتيمنًا بزعيم الأمة، وأجريت أول انتخابات علنية بين المرشحين: إبراهيم بك الهلباوي وعبد العزيز باشا فهمي ففاز الأول بفارق كبير من الأصوات، والهلباوي هو ممثل الإدعاء في حادث دنشواي ١٩٠٦م الذي حلَّ محل الخديوي أو النائب العمومي في حق المجني عليهم باعتبارهم ضيوفًا على أرض مصر!!

وقد عوض ذلك بمرافعته عن المتهم بقتل رئيس الحكومة المصريّة بطرس باشا غالي (١٩١٠) إبراهيم الورداني، وهو ما شفع له بإنتخابه أول نقيب للمحامين ١٩١٢م لأنه امتهن المهنة علانيّة ودافع عن المتهم وهو حق أصيل لأي متهم الدفاع.

استمر الهلباوي بك نقيبًا لمدة عـام تبعه عبد العزيز باشا فهمي ومحمود أبو النصر وأحمد لطفي بك فمرقص حنـا ثُم محمد بك أبو شادي والد الشاعر الشهير" د .أحمد زكي أبو شادي"، ثُم جاء بعد ذلك نقباء من مشاهير المُجتمع أمثال : محمد نجيب الغرابلّي، عاصم عبد الحق، محمد على علوبة، مكرم عبيد، محمد صبري أبو علم، عمر عمر الذي عارض ثورة يوليو في أحكامها العرضية وتشكيل محكمة الثورة فأقال عبد الناصر مجلس النقابة وشكل مجلس جديد بالتعيين عـام ١٩٥٤م برئاسة النقيب المستشار عبد الرحمن الرافعي حتى عـام ١٩٥٨م فحل مصطفى البرادعي وعبد العزيز الشوربجي، فأحمد الخواجة حتى عـام ١٩٩٦م، فتحولت النقابة إلى الحراسة حتى عـام ٢٠٠٠م فأُجريت الإنتخابات عام ٢٠٠١م التي فاز بها سامح عاشور على رجائي عطيه وكذلك ٢٠٠٥م وفي عـام ٢٠٠٩ حدثت المُفاجأة بفوز حمدي خليفة النقيب ال ٢٤ في تاريخ التنظيم النقابي للمُحامين المصريين.

أُشير إلى حمدي خليفة بأنه النقيب الإجتماعي الذي اهتم بالشقق السكنيّة والنوادي الاجتماعيّة والمُدن السكنيّة والعلاج على حساب النواحي القوميّة التي تدافع فيها النقابة عن قضايا الحريات وهموم الأُمة..

ألبست نقابة المُحامين روب المحاماه للرئيس جمال عبد الناصر ورفضت منحه للسادات وكان مُبارك لا يهتم بهم ولا يهتمون به .

وقضية الحريات في مصر كانت تُنظر في بيت الأمة، بيت سعد زغلول ومن بعده بيت العروبة لأحمد زكي باشا، ثُم آلت الحريات إلى قاعات تبنتها نقابات المُحامين والصحفيين ثُم الأطباء والمُهندسين

والصيادلة وبعض الأحزاب السياسية، انحسرت في العقد الأول من هذا القرن وتقلص دورها إلى درجة الوجود الشرفي والشعارات فقط ..

اتصل بي الأستاذ حمدي خليفة نقيب المُحامين الجديد في رم ٢١م ودعاني إلى العمل في الموقع الإلكتروني الذي أصدر له قرارًا بمجلس تضمن نشر أخبار تهم المُجتمع كله ويصبح صحيفة إلكترونية تصارع المواقع الإلكترونية الشهيرة، حقيقة لم أكن مُسلحًا بالفهم الإلكتروني الحديث، ولم أكن ممن يهوون الجلوس أمام الحاسوب ويتواصلون مع المُجتمع إلكترونيًا، فكنت ورقيًّا فقط ولم أطور من نفسي!! لى كلٍ فقد ذهبت وجلست واستمعت ولكن مشرف الموقع اليسارى الهارب الآن كلالعشري ما كان يروق لي إطلاقًا، لأنني كنت أُجاهرهم العداء، وكنت أضعهم في موضع المتكسبين بالدين في لِحاهم وتهذيبها، وأن الدين منهم براء وأنهم دعاة سياسة ولبسوا دعاة إصلاح، وهو ما حدث بالفعل وظهروا على حقيقتهم عقب ثورة يناير ٢٠١١ م.

قدّر لي الجلوس في القاعة على جهاز لم أكن أعلم فتحه وإغلاقه؛ ولكن بعض المحررين والمحررات الشابات بدأوا يألفوني ويعلموني فنية الحاسب من فتح وتصفح والكتابة على الوورد والوصول إلى المواقع الأُخرى، وأصبحت في غضون شهرين مُتمرسًا على هذا العمل، بل وشبه خبير.

جنحت إلى تشكيل قسم يختص بأخبار النقابات الفرعيّة للمُحامين على مستوى الجمهُوريّة وعددهم ٢٩ نقابة مُمثلين في (٣٦٠) عضو عن المحاكم الجُزئيّة، طلبت هواتفهم ودوائرهم وبدأت مع اثنين من محررات اتخذتهما مرؤستين لي ودربتهم على العمل وقسمنا النقابات فيما بيننا ونجحت التجربة وآتت أكلها، وبدأ النقباء الفرعيين وأعضائها

يتوافدون على الموقع ويتصلون بنا لبث الأخبار وعرض المُشكلات وإبراز الطموحات، فنجحنا نجاحًا كبيرًا، لفت أنظار عديدة لنا حتى قامت ثورة يناير فاختلف الأمر وتغيرت المجريات وابتعد النقيب عن مكتبه بفعل المُناوئين ولكنه كان يدير كل شيء حتى حكم المحكمة الإداريّة العُليا برئاسة المُستشار سيد نوفل في ٢٦/٧/٢٠١١ م ببطلان وجود مجلس نقابة للمُحامين ونقيب أعمالًا بالقانون ١٠٠ ، ومع هذا الحكم انتهى كل شيء وانتهى الموقع وتولى أمور النقابة محكمة إستئناف القاهرة حتى أُجرت الإنتخابات في نوفمبر ٢٠١١م وعاد النقيب التقليدي سامح عاشور لكي يتبوأ مقعده كـنقيب.

تركت نقابة المحامين وتركت العمل المريح، والمرتب التداولي الذي يبعث في النفس الإستقرار وعدت إلى جريدة الأحرار اليومية أعمل سكرتيرًا للتحرير، بمرتب متذبذب وعمل ثقيل وهموم أثقل، ولكنه على أي حال أفضل من الجلوس على قهوة "بعـرة" وبعد عدة شهور أصدر رئيس الحزب قرارًا بتعييني محررًا بالجريدة بتزكية من رئيس التحرير في الفاتح من مارس ٢٠١٢ م، وهو الخبر الذي أحزنني كثيرًا ولم يدخل السرور إلى نفسي حيث كنت وحتى هذه اللحظة افتقر إلى حيازة شهادة الليسانس التي تركتها وباقٍ في ذمتي خمس مواد لم أنته منهم حتى تاريخه!!

صدر القرار وكان عليّ ضرورة العودة إلى كليتي بجامعة القاهرة لإستبيان الأمر : أما أنني فصلت بعد إنقطاع (١٧) عامًا، أو أنني نجحت بعد حريق الكلية ١٩٩٧م، أو مازلت على حالتي ومن حقي إستكمال الناقص منّي..وكان الخيار الأخير هو المشروع لي فعملت على إتمامه والعمل به وفيه حتى حذْت الشهادة بناء على قرار الدكتور مفيد شهاب ١٩٩٣ م بأن الطالب الذي يصل إلى الفرقة الرابعة أو

النهائية في الكلية النظريّة وينجح في نصف المواد على الأقل من حقه أن يستكمل الباقي إلى أن يتخرج، يا إلهي! وكأن هذه الفرصة فُصلت خصيصًا لي، وأتتَ على مقاسي، فعدت إلى دراستي، زميل مع من هم في سن أبنائي، ولم أعر ذلك اهتمامًا، خاصة وقد رأيت من دفعاتي من وصلوا إلى عضويات هيئة التدريس، ولم يفت ذلك في عضدي، ومضيت ثمت قلت لا يعنيني، حتى حصلت على الشهادة في ٢٥/٧/٢٠١٣م، بعد أن أغلقت الجريدة في ٢٥/٤/٢٠١٣ م.

ويا للأقدار التي رسمها القدر بمقدار، فقد ذهب عن التعيين باستكمال أوراقي وأصبحت في مهب الريح، ولكنني عدت للنهوض من جديد بالمضي قدمًا في دراستي إلى الدراسات العُليا في الدبلوم الخاص فاجتزته بتقدير جيد ٢٠١٥ ، وهذا التقدير لم يقدّر لي في حياتي ثم تقدمت إلى الماجستير فحصلت عليه بامتياز في إبريل ٢٠٢٣ م .. الحمد لله تعالى بهذه الدرجة العلمية التي أراها تعويضًا كبيرًا عن تعييني وجود عضوية نقابة الصحفيين التي حرمت نفسي منها طيلة حياتي لرعونتي وتقصيري في حق نفسي !

****

الفصل العاشر

١٩٩٢-١٩٩٧-٢٠٠٤

"أمين باشا عثمان وعم سيد الحرامي وطلبة عويضة"

تزوجت زواجًا تقليديًا في الفاتح من أكتوبر من عام ٢٠٠٤م، وأنا في عامي الرابع والثلاثين، جاء هذا الزواج بعد مروري بتجارب مُتعددة في الخطوبة، علاوة على مسالك الحبِّ والإعجاب التي تملكتني حينًا من الدهر ومازالت تتملكني، وأعتقد أنها ستظل..

منَّ الله علىّ بإبنه وحيدة أسمتها والدتها "جني" وكان فى عام ٢٠٠٥ اسم جديد غير شائع هو وجومانا، على بركة الله ملأت جني علينا الحياة كلها وكانت قريبة جدًا منِّي، حيث لا عقاب ولا حساب، وكل طلباتها مجابة، وذلك ليس من متطلبات الحياة التربوية، ولكنِّي كنت الضعيف أمامها، ومازالت تحتفظ هى بذلك وتوفيه حتى اليوم، وهى الطالبة الجامعية الأن.

بعد أقل من أسبوع من حفل زواجي هاتفني صديق أعتقد أنني على وفاق معه إلى حدٍ ما، مفاد مُكالمته أن صديقنا السيد عبد الجليل وهذا اسمه تم القبض على ابنه (سليم) من منزله بقرية الأحراز بمركز شبين القناطر مُنذ يومين فجرًا، وتم إقتياده إلى مركز شُرطة دسوق، وهو الآن يخضع للحبس.

تعجبت! كيف يُقبض عليه فجرًا؟! وتسلل إلى نفسي إحساس سريع أن جهة القبض والتحقيق هي (أمن الدولة)، فى عصر ما قبل يناير ٢٠١١، فهي الجهة السياديّة الوحيدة التي تقبض على كل من تشتبه فيه توقيت هي تراه مُناسبًا لها، بغض النظر عن إزعاج أو انزعاج

المواطنين.. فأكد ليّ صديقي أنه لا يعرف شيئًا عن تفاصيل الموضوع ولم يخض في ذلك نظرًا لقيامه باستقبال المعزين في وفاة والده في غضون تلك الساعات، ولأن السيد عبد الجليل تاجر مواشي وجزار في نفس الوقت، علاوة على كرمه الزائد عن الحد، له علاقات مُتعددة وله واجبات على معارفه وعلاقاته وهو صاحب موقف، أتذكر عندما نقوم بزيارته يتقدم بذبح (جِدي) أو خروف ويضع تحت أرجلنا الدماء ونخطي عليها بدعوى أن ذلك يذهب بالرجفة ووسوسة الشيطان، ثُم يقوم بتقطيع الكبده لنا وتشويحها في دهون الخروف في دقائق معدودة يكون فيها قطَّع لنا الكلاوي إربًا لتناولها (نيئة) بدعوى أنها تزيد الكرات الحمراء في الدم على حساب الكرات البيضاء، وهذا في حد ذاته مناعة للإنسان الذي يحرص على الوقاية من الأمراض.

وبعد ساعتين نجده يتحفنا بسفرة عامرة بكل الأصناف في اللحوم المذبوحة الطازجة، المسلوق بالشربة والمحمر (المشوي) والمخلوط بالمرق، علاوة على تنويعات أخرى لم أكن ذا عهد بها، ثُم يقسم علينا بالطلاق من زوجته أن نلتهم هذا الطعام كله وإلّا يقوم بتطليق زوجته.

تأخذنا نوبة من الضحك لأن المائدة العامرة والمعدة بأيدي زوجات عم سيد عبد الجليل الأربع، علاوة على إثنين طلقهما ويعشن في البيت لتربية أولادهن، هذه المائدة تكفي عشرين فردًا جائعين طوال اليوم، أما نحنُ لا نستطيع إلّا أن نأكل قدر ما تسمح به أمعاءنا، فيُقسم علينا بتناول اللحوم فقط دون الإكتراث بالطبيخ والأرز والمحشيات بأصنافها، والتي كانت تتوق نفسي لها أكثر من اللحوم..

كنّا نأكل بنهم وأحسُّ أنني أقبل على الطعام أكثر من أي مرة وأي عزومة قبلها حتى في رمضان نفسه، ومرجعية ذلك تأتي إلى تناولنا أقداح (البيبسي) قبل الطعام بساعة، فنتجرع من الزُجاجات ما يصل إلى عشرة مُقسمين بيني وبين صديقي (رواش) وبعد الإنتهاء من الطعام يقوم بحزم كل ما تبقى منّا في أكياس مُغلفة ويقسم علينا بالطلاق أن

نذهب به إلى بيوتنا، ولأنني لم أكن مُتزوجًا حينها، فكُنت أذهب بالطعام إلى أقاربي تارة، أو إلى جيراني أخرى، فيأكل الجميع والشكر لعم سيد عبد الجليل، وقبل أن نخرج من بيته بالأحراز، كان يقوم بمنحنا قطع (الأفيون) الأصلية والتي تذوب في كوب الشـاي فتُحول لونه الأسود إلى الأبيض كالحليب، وبعد تناوله بالشـاي وتحت اللسان، أكاد ينتابني إحساس بأن أربع زوجات لا يمكن أن تجاريني جنسيًّـا، وأن صراخهن قد يأتي برجال البوليس بدعوى الشروع في القتل.

وعم سيد يكفيك منه رنة واحدة على هاتفه فيتصل هـو ويؤكد أنه في طريقه إليك مُحملًا بالرجال والسلاح والمال وكل ما تبغيه طالما أعطيته (مزدًا)، ويكون الأمر أهون بالطبع، وإذا غبت عنه أسبوع لم تتصل، فتجده هـو متطوع للإتصال مُعاتبًا أنك مُقصِّر في حقه، وأكيد لك عنده حق أو أي أشيـاء من هذا القبيل، هذا ببساطة عم سيد عبد الجليل فكونه في ضائقة أو شدة وأعلمك؛ وَجبَ عليه نجدتة في التوِ واللحظة، ورغم أننى كنت في شهر العسل، ولكن أمري يمكن معه القيام بالواجبات عكس صديقي رواش الذي يقوم على استقبال عزاء والده في طوخ، وهـو ما يستوجب معه ألّا ينصرف.. وإمعانًا في كرم عم سيد فقد بعث بسيارة (بيجو صالون) فابريكة بالسائق الذي جعله في خدمتي وطوع إرادتي حتى منزلي بالهرم، علاوة على كمية الفواكه والطعام الخفيف وعلب سجائر مارلبورو، وشيشة صغيرة مزودة بفحم مثل أقراص النعناع تؤدي خدمة النار فوق (المعسل) بمجرد أن ترى شظايا الكبريت، كما يضع في السيارة فوطة تنشيف وقميص لزوم التغيير من الحرارة التي تنتهك الياقة بفعل الرطوبة..

ووسط هذا كله يزود السيارة بأشرطة الكاسيت لجميع الأغاني من عدوية ووردة وأم كلثوم وفايزة وعبد الحليم وفريد، ويتوقف عند آخرهم محرم فؤاد فهـو لا يؤمن بالمُطربين الجُدد ولم يتطور مع ما جاءوا به من إيقاع سريع، فهـو تقليدي بفطرته. كل هذا قليل من كثير، فإذا ما

أردت بفاتنة تسليك في الطريق أو تتصل بهاتفك لـتنعشك، وتعدل مزاجك يحدث، المُهم أنك تعيش اللحظة وتستفيق..

على الفور ركبت بجوار السائق ورحت استفسر وهو يقطع عباب الطريق على ظروف ومُلابسات الحادث الذي تعرض له سليم السيد عبد الجليل جراء القبض عليه، وأي جناية أو جريمة أُلفِقت له، فعم سيد من أولياء الله الصالحين، وليس له أعداد وليس من اللّاهثين وراء عرض الدُنيا، فقد أغناه الله من حلاله ما جعله يغفل عن حرامه!

إستغرقت الرحلة من الهرم إلى مركز شُرطة دسوق حوالي الساعتين، بسبب ضعف الطريق الريفي المؤدي إلى مركز الشرطة الذي يقبع وسط الزراعات، وفي صحنه عدد من الأبقار والجاموس والأغنام، يقوم أفراد الشُرطة على رعايتهم، وهو ما راعني ولكنني لم أتأمل وأتوقف عند هذه النُقطة كثيرًا، ولم أُفكر لحظة أن الشرطة تستثمر الحيوانات اقتصاديًّا، وهذا لم يكن حقيقي بالطبع، ثُم وجدت مقهى أمام صحن المركز يجلس عليها نفر من الناس حسبتهم للوهلة الأولى أنَّ لهم أقارب محجوزين بالمركز تحت رهن التحقيق، أو يقضون عقوبة سالبة للحريات.. ما أن رمقني بسهم ناظريه عم سيد عبد الجليل إلّا وهمَّ مرحبًا بحرارة كـعادته وألمحت في نفسه إنكسار وفي عينيه ذبول وانهزام، فربتُّ على كتفه اليمنى وأكدت له أن الأمر لن يعدُ إلا مجرد اتهام فقط!

وعلمت أن الذين قبضوا على ابنه سليم هم المباحث الجنائيّة وليسوا المباحث العامة، وهذا ما هدأ من روعي وطمأنني قليلًا.. كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساءً، فتركت عم سيد وصحبه مُسرعًا إلى داخل بهو المركز لأصل إلى رئيس المباحث قبل مغادرته المكان للراحة ساعات.. فوجدته يقف وسط مجموعة من المُتهمين مفرج عنهم ويقوم بتلطيشهم بكفه الأيمن متمنيًا ألّا يراهم مرة ثانية في إتهام، ولو عادوا لفعلتهم سيلقون ألدَّ الخصام.

حييته فحياني وقد عرف هويتي أنني أعمل في بلاط صاحبة الجلالة ولي في العلاقات باع، ورأيت الأفراد يحملون له أوراق وحقيبة صغيرة ويسيرون وراءه، فعلمت أنه ذاهب إلى إستراحة الآن.

ولما سألته عن (سليم) أجاب بأنه أفرج عنه وهو الآن مُرحَّل إلى بلدته، وانتهى أمره إلى مُجرد بلاغ.. إستأذنته وعدت إلى المقهى فهلل عم سيد بقدومي متعجلًا السؤال!

- ايه الأخبار يا بيه، طمني؟
- فقُلت له بخروج ابنه وترحيله إلى بلدهم مُنذ ساعات، فرأيته مُستهجنًا:

إن ابني مازال في الثلاجة حتى الآن!!

- كيف ذلك؟ وكيف عرفت؟ ومن قال لك؟ ورئيس المباحث بنفسه هو الذي أكد لي البيان!!

إن الأُمناء والأفراد يأتون لضيافتي على القهوة ويثنوني بالأخبار .. يا بيه أنا عن كل شيء علمان!! يا لها من مفارقة! ورئيس المباحث يهزأ بي إلى هذا الحد!! ويمنحني كلمتين على عقلي ليصرفني؟ لابد من مراجعته عندما يأتي المساء.. جلست وجلس الجمع حولي وعم سيد يترأس الميدان، ويؤكد لضيوفه أنني بيه كبير قوي ولديّ سُلطان، وسينتهي الأمر الليلة وتنتهي المُعاناة ونُسافر جميعًا فرحين إلى الأحراز بدون عناء ولا فناء.

حاولت أن أستفهم من عم سيد عن الموضوع فوجدته كالأخرس وسط الزفة لا يعلم من نفسه شيئًا، ولا يعلم كيف جاء البوليس بابنه إلى هذا المكان، ولما سألته عن قطعان الحيوانات بصحن المركز وقيام الأفراد على تربيتهم، عمل عم سيد من بنها ولبنان!!

وعندما أتت التاسعة مساءً علمت بوصول رئيس وحدة مباحث المركز إلى مكتبه، فهرعت إليه كي أُعاتبه على معلوماته لي بالنقصان، وبالمرة أعرف حكاية سليم بالضبط، وهل هو موجود أم تم ترحيله إلى مكان آخر وعم سيد يضلله الأُمناء أم لا؟!

أثناء دخولي المركز وصعودي للدور الثاني وجدت يافطة مدون عليها شعبة البحث الجنائي، فغام عليَّ الأمر ودخلت إليها فوجدت ضابط شرطة يرتدي الملابس الملكيّة يجلس خلف مكتبه ويتحدث عبر الهاتف الثابت وعلى مكتبه فرد أمن، أعلمته بهويتي فأدخلني المكتب فوقف الضابط وسلك عليَّ، دون أن يتكلم وأشار إليَّ بالجلوس، وكما أشار لفرد الأمن علامة بيده توحي بواجب ضيافة، فخيرني هذا الحارس بين شراب أختاره، فاخترت قهوة مضبوط، ومن يعرفني حق المعرفة يعلم أنني لا أتناول القهوة قطعًا؛ ولكن طلبتها لزوم القنعرة والأتيكيت!!

لمحت لافتة خشبية على المكتب مدون بها اسم الضابط ورتبته الشرطيّة.

(عقيد عبد اللطيف سعيد) ويا لها من مُصادفة أن هذا الضابط ينتمي إلى عائلة مشهورة بالبحيرة في مركز إيتاي البارود، وأنا أعرف منهم ضباط مُعينين أحدهم عز المعرفة، فهذا سيسهل مهمتي، كما أن منصبه رئيس فرع البحث الجنائي في جنوب كفر الشيخ يتيح له أن يأمر رئيس وحدة المباحث الذي أوهمني بما لم يحدث –على ما اعتقد- وأن أتمكن من مُهمتي، وخاصة أن العقيد هذا يبدو أنه مهذب جدًا وراقي ومن معرفتي بعائلته علمت أنه ابن ناس محترمين للغاية.

انتهى من مكالمته فوضع السماعة وكرر الترحيب بي، ذلك كله دون أن يعلم هويتي، فلما أعلمته زاد من حفاوة الترحيب، وعندما علم أن لي أصدقاء بعائلته هلل مُستبشرًا وطلب منّي تليفون أحدهم كان قائد حرس آداب طنطا ومأمور عندنا في الصعيد، فطلبته له وحدثت مُحاورة أشاد فيها الطرف الثاني بتاريخي الصحفي فشدَّ من أذري وأضواني، وبعد ذلك كله دخلت في المُهمة الأساسية التي حضرت من أجلها وهيّ حكاية عم سيد عبد الجليل وابنه سليم، وعندما انتهيت من طرح ما لدي

من معلومات وهو يبتسم؛ ضغط على جرس المكتب فأتى الحارس وهو يؤدي التحيّة العسكريّة، فقال له بهدوء وأدب غير معهود لدى رجال الشرطة:

- هات لي عمك سيدعبد الجليل من على القهوة؟

- فردّ الحارس تمام يا فندم.

ورحنا نتهادى في أحاديث وبعد سبع دقائق أتى الحارس بعم سيد عبد الجليل يتأبط نعليه تحت إبطه ويدخل علينا مُحييًا وهو مُطأطئ الرأس!

- مش عارف ابنك مقبوض عليه في ايه يا عم سيد؟
- مقامك عالي يا سعادة الباشا، ربنا يعلي مراكبك ويديك الصحة، أنا من ساعة لما انقبض عى ابني وجروه من بين إيدي، وأنا اللي خدني ما جابني..
- إزاي ياعم سيد؟ ما أنتَ كويس أهو
- ربنا يعلي مراكبك وتبقى حكمدار العاصمة قادر يا كريم، ثُم ركز على ركبتيه وهو يدعو بعد أن خلع غطاء رأسه..
- قوم يا عم سيد واقعد على الكُرسي!!
- مقامك عالي يا سعادة الباشا ربنا يخليك، أنا كويس كده ومرتاح وعقلي منّي راح..
- إزاي يا عم سيد؟
- رحت أصلّي الظهر يا سعادة الباشا وأنا داخل بيت ربنا رجعوني، فقلت لهم : أنا داخل أصلي في بيت ربنا ومحدش يقدر يمنعني، وحاولت أدخل بالقوة فَرموني لبره، فبكيتُ، فلما رقَّ بهم حالي قالولي : يا حاج أنتَ عاوز تصلي الظهر تروح الجامع مش تيجي هنا!! قلت ده مش بيت ربنا؟! قالوا: آه بيت ربنا فيه تؤدي العبادات بس لفئة مُعينة يا حاج؛ ده كنيسة مش جامع يا حاج؟!

عقلي تاه يا سعادة الباشا ماعرفش الكنيسة من الجامع ولما روحت امبارح مسكت إحدى حريماتي علشان حقي عليها بشرع الله، فصرخت وصحت البيت كله وهي تقول فوق يا سيد أنا أختك يا سيد مش مراتك؟! عقلي تاه يا سعادة البيه، تُهت بين مراتي وأُختي!! يبقى عاوزني أعرف ابني قبضوا عليه في إيه؟! وأخذ يبكي كما تبكي الأُنثى تحت زوجها أثناء قضاء وطره..

فإذا بالعقيد رئيس الفرع الجنائي يستخرج من مكتبه كورباجًا سويسريًّا أزرق ويطرقعه في الهواء صارخًا : سيد فوق يابن ..... وابن ..... وأبوك على ..... في لحظة واحدة تكهرب الجو واشتعلت نيرانه وإذ بعم سيد يقف وقفة عسكرية قائلًا : تمام يا فندم؟! ويضرب بيده مجيدًا أمام وجهه وبقدمه إلى الأرض ويده الثانية في موضوع الثبات..

ابنك يا سيد مقبوض عليه في تشكيل عصابي لسرقة المواشي والأبقار والغلال يا سيد، ابنك معترف بجرايمه يا سيد!! أنتَ ماعرفتش تربي يا سيد يا حرامي!! لولا سنك لـحبستك ورميتك في الحجز زي المذنب، علشان فيه اعتراف عليك إنك كنت بتتاجر في الأبقار المسروقة يا سيد، وتدبحها للمواطنين في الأحراز وتبيعها بالسعر العادي.. فاهم يا سيد!! لولا البيه المُحترم اللي أنتَ تعبته وجبته على ملاااا وشه وأوهمته إن ابنك مقبوض عليه ظلم، ومش عارف تهمته إيه؟! إحنا مش بنلفق يا سيد ولا بنتهم حد بالباطل علشان ربنا يا سيد، علشان بنتقي الله علشان ولادنا يا معرض يا حرامي.....

عم سيد طلع حرامي يا أولاد؟! ياااااااه يا ربي يا رزاق، عم سيد طلع حرامي بيتاجر في المال الحرام.. عم سيد عارف كل حاجة ومخبي وبيلاعب الكل بالتلات ورقات، طيب لو أنا قمت دلوقتي وضربته بالبوكس أكيد هيبقى اعتداء ويسموه بيتشطر على الغلبان؟! طيب ومنظري أنا قدام عبد اللطيف بك ايه؟!

أنا مصاحب حرامي مواشي وجاي وراه؟! ده معناه إيه!! شريكه ولا إيه!! عليك اللعنة يا عم سيد وعلى صاحبنا عبد الله وعلى اليوم الأسود اللي شفت الكل فيه، على آخر الزمن بصاحب حراميه!!

هدأ العقيد المُفتش من روعي بعد أن شاهد هلعي وأكد لي أن مهنتي تحتم عليّ أن أخوض أكثر من هذا!! إحنا مش ملايكة يا أُستاذ أحمد، وياما بنتخدع في ناس والقانون لا يحاسب على النوايا، ولا تزر وازرة وزر أخرى!! ثُم يصرخ في العسكري الحراسة : خلّي الراجل الزبالة ده يغور في داهية، مشيه من هنا، لأحسن والله أفش فيه غلِّي وأحبسه.. أسمع سرعة أقدام عم سيد الحرامي وهو يجري حتى انبرت عن مسامعي.

وإذ برئيس فرع البحث يطلب لنا قهوة فرفضت فأبدلها باتنين ليمون لكي تهدأ أعصابي وأعصابه، ونخرج في ابتسامة في حديث آخر:

أخبار الدُنيا إيه يا أحمد بيه؟ ومصر عاملة ايه؟

لما آجي قريب أكيد هعدي عليك ونسهر مع بعض ونغير جو، أنا بحب أروح عوامة السرايا ونجيب إبراهيم بيه وتبقى صحبة جميلة.

تؤمرني يا أحمد بيه، سيب الليمون يا بني وروح هات لنا سجاير مارلبورو تهدئ أعصابنا، ورغم أني أحتسي البرجولة إلّا أنني هممت نحو المارلبورو بنهم خاصة وأن عشائي كان سمينًا، ونفسيتي تحتاج إلى أنفاس من الغليون!!

هحكيلك الحكاية كلها يا أحمد بيه علشان تزيد معرفتك بالعالم الحوش دول.. عندنا في الفلاحين يا أُستاذ أحمد كل ما بينسرق من أي مواطن حاجة مهما كانت صغيرة، نلاقيه يروح يعمل محضر في

النقطة، وحينما تتعدد المحاضر حول أشياء مُتماثلة بنفس الطرق، في هذه الحالة تنشط المباحث، وتبدأ في إحكام الأكمنة ونشر المُخبرين السريين لمُحاولة التوصل إلى الجُناة وتعقب أذنابهم.. خاصة بعد أن وصلت محاضر سرقة الأبقار من زرايب الفلاحين وسط الحقول حوالي سبعين محضرًا، وسرقة الغلال كذلك والجاموس والغنم والماعز وحتى الديوك الرومي.

قُمنا بإحكام الأكمنة حول منافذ مُدن دسوق ومشتول السوق والبلاد المُجاورة والمُتاخمة مع مُدن محافظة الشرقيّة والبحيرة، وتم القبض على بعض الجُناة الذين يسرقون الأبقار من الزرابي في الفجر ومُنتصف الليل مُدعين أنهم ذاهبون إلى السوق لبيعها، وهي نفس الأوقات التي يذهب فيها الفلاح فعلًا لبيع أغراضه، وبالإستعلام عن البطاقة تبين أن السائق ومن بجواره ليسوا من أبناء البلد وهم غرباء!! إذاً ما علاقتهم بالبلد ورخصة السيارة، وبفنون المباحث! تم القبض عليهم والتحقيق معهم حتى اعترفوا تفصيليًّا بالواقعة أو الوقائع وأرشدوا عن كل الجناة المُشتركين، وقمنا بعد إذن النيابة بالقبض على كل الجناة فجرًا من منازلهم في أي بلد حتى وصلنا إلى حدود البحيرة والقليوبيّة، لأن إذن النيابة له واسع الصلاحيات لا يرتبط بحدود مُحددة..

الحكاية هيّ أن في هذه البلاد التي هي هُنا جناة مُختبئون في منازلهم، يقومون عبر الهاتف بإرشاد شركائهم في الجرائم بأن فلان مثلًا غادر القريّة ولن يعود سوى غدٍ وزريبته بدون حراسة، يقوم التشكيل العصابي بالوصول للنقطة المُحددة ويحمل كل ما فيها من أبقار أو أغنام أوغلال في سيارات مُجهزة تعمل بالبنزين سريعة وقادرة على الركض وتفادي الحواجز بواسطة سائق مُدرب وعُمال مهرة.

وهكذا يأتي شاري المسروقات الحرام وهو يعلم، فسعر البقرة الآن خمسة آلاف جنيه، يشتريها هو بثلاثة آلاف ويبيعها بأربعة آلاف في سوق كفر الدوار العمومي أو سوق العامريّة لتُجّار يتكسبون منها، بحمد الله قبضنا على كل الجناة المشتركين في الوقائع، تاجر الحرام يقوم برد كافة المسروقات ونقوم بتسليمها بواسطة النيابة العامة لأصحابها الذين سبق وأن حرروا محاضر بها، ويكون المحضر مدون فيه مواصفات المسروقات من طول وعمر البقرة مثلًا، وهم ما رأيتهم اليوم في صحن المركز ويقوم الأفراد الشُرطيين برعايتهم وتغذيتهم لأنهم عُهَد، بعدها يتم الإفراج عن تاجر المسروقات، وإذا كانت السرقات تمت بدون اعتداء، سرقة عادية وليست سرقة بالإكراه، يتم الإفراج عن المشتركين في الجريمة مباشرة بدون حبس، وسليم بن السيد عبد الجليل مشترك في تهمتين وعند عودته من النيابة سنفرج عنه مباشرة، مع أن القانون يخوّل للمباحث احتجاز المتهمين في مثل هذه الجرائم أيام وترحيلهم إلى بلادهم بعد ذلك بسيارات الترحيلات أو القطارات وخلافه، ولكننا نكتفي بصرفهم من ديوان المركز، ورغم أن القضايا تهم مركز شرطة دسوق إلّا أن شعبة المباحث تشرف على القضايا التي فيها تشكيل عصابي مُتعدد ويشكل خطرًا على الأمن العام، أمّا المرشد المُختبئ داخل البلد، فلولا جرائمه هذه بإرشاده الغرباء ما تمت الجرائم في الأصل!! وهذا المُتهم سواء أكان واحدًا أو أكثر هؤلاء القانون واضح بالنسبة لهم هو تقييد الحرية بالسجن لمدة خمسة عشر عامـًا ولا يجوز العفو عنه أو التصالح.

يااااااه هذه حكاية طويلة جدًا أفدتني منها سيادة العقيد، وأنني اليوم لا أندم على طول سفري وأنا في مسيس الحاجة إلى الجلوس في بيتي ولكن قدَّر الله أن أعلم ما لم أكن أعلمه وما كنت علمته لولا أنني جئت اليوم.

إستأذنت من رئيس فرع البحث بعد الأحضان الدافئة والقُبلات ومُبادلة الهواتف على أمل اللقاء، بعد أن نصحني الأ أُقابل الحرامي سيد حتى لا أفقد شعوري وأضربه فيتم تحرير محضر بذلك يعوقني إلى سفري للقاهرة.. وفي صحن المركز عبرت إلى جواره وأردت أن أجلس على المقهى لأحتسي الشيشة كي أروق دمي مما أصابني وأشرب الشاي ثُم أعود للقاهرة وكنا عند العاشرة والنصف مساءً وسيارة الحرامي سيد تنتظرني عند المدخل ولا يمكنه أن ينحيها أو يمنعها ساعتها فقط أضربه بحذائي وأكون لي كل الحق على أنه ضللني وخيب ظني ولكنَّه أفادني بأنه حرامي يتاجر في الحرام، وإذ بشخص يجلس على مقربة منِّي، فحدقت النظر فيه فإذا هو رئيس تحريردمنهور القريبة جدًا من دسوق ، جاء ليسأل عن سيارة ابن خالته المُحتجزة بالمركز ولم يعلمه أحد بواقعة السرقة.

ضحكت من المُفاجأة كما استغرب هو من المُفاجأة!! على الأقل هو من بلدة مُلاصقة لمركز دسوق ووجوده بحكم المسافة أمر عادي، الغريب في وجودي أنا وفي هذا التوقيت وهذه المنطقة بالذات، منطقة مركز شرطة دسوق!!

وبعد حديث طويل امتد ثلث ساعة، زال العجب مع معرفة السبب، فصعدت معه إلى مكتب رئيس شعبة فرع البحث الجنائي، والذي كان يعرفه بحكم صلة الصحافة والقرى المُتجاورة للعائلات، كما أنه خدم في فرع البحث الجنائي بكفر الدوار (شمال البحيرة) كـرئيس بعد اللواء الصيرفي، جلسنا واستمع رئيس التحرير للواقعة التي كان لديه موجز عنها وتم وعده بالإفراج عن سيارة ابن خالته حيال انتهاء تحقيقات النيابة العامة.

عُدت إلى القاهرة مُعززًا مُكرمًا وأنا في حالة زهول!! هُناك واقفة لا يُمكن إغفال ذكرها في هذا الخضم وتأخرها يعود لمُزاحمة الأفكار في الرأس وتداخلها تناصًا..

كُنت في مكتبي بجريدة أخبار دمنهور في حالة استرخاء تام ومُحاولة إستجمام، العدد الجديد في الأسواق، والباعة يُداهمون المقر بالدراجات بحثًا عن النُسخ التي نفذت من الأسواق، وهم يُحصلون عليها من الجريدة مُباشرةً طمعًا في النسبة الأعلى من شركة التوزيع.. وهي أمور إداريَّة تُدخل السرور على قلبي أكثر من الإزعاج، كون النسخ يتم البحث عنها معناه قبول ما بها من المُتلقي (القرّاء)، الذين كانوا يقبلون على قراءة الإعلانات كما يقبلون على قراءة الأخبار بكافة أنواعها (سياسية – اجتماعيّة – ثقافيّة)، وفي هذه اللحظة وجدت الساعي يُحاول صرف مواطن عن الدخول لعرض مشكلته بدعوى أن مسئولة باب هموم الناس غير مُتواجدة، والرجل يتعلل بسفره وطول مشواره، وحتميَّة المُشكلة، كأنه مريض يحاول أن يستطير من أجل إنقاذه.

خرجت وأدخلت المواطن بيدي وأجلسته أمامي على الأنتريه لأستمع إلى شكواه، وعادة ما تكون الشكوى عادية وتجد المواطن يضخمها إلى درجة الفساد الإداري والكوارث الجماعيّة، ومُستقبل الأُمة وأهل مصر كله في حلها.. أنا من مركز الرحمانيّة بقرية كذا.. وأسكن في عزبة كذا.. والمأساة أننا نعيش بدون مياه ولا صرف ولا كهرباء، وحياتنا بدائيّة تعتمد على مواقد الكيروسين والأفران البلدي ذات الموقد القديم بأغصان الشجر اليابسة ومخلفات المواشي.. نشرب من الترعة ونستحم فيها ونقضي حاجتنا، ونحمد الله على ذلك، رغم أن البلهارسيا تقضي كل يوم على خيرة شباب المنطقة قبل كهولها.

إنتفضت لذلك وجلست مُعتدلًا وطلبت من الساعي كوبين من الشاي بعد أن قبلت سيجارة (روزمان) من المواطن حتى يطمئن ويقصُّ كل ما بداخله.

الصحفي كـالطبيب كـالمحامي، لابد له من إراحة المواطن باعتباره مريضًا كي يطمئن إليه وتنساب منه كل الأفكار حتى أتمكن من حلول لها وفق مُعطيات صادقة وواقعيّة..

نحنُ نعيش على هذه الأرض مُنذ عشرات السنين، أكثر من مائة سنة، وجدنا آبائنا عليها وأجدادنا في خدمة الباشا أمين عُثمان الوزير الوفدي الكبير الذي أغتالته يد الغدر –كما قال المواطن- في يناير ١٩٤٦م، وهو يوم حزين ما زلنا نتذكره ونحنُ في مسيس الحاجة إلى الوصول إلى عُشر خير هذه الأيام، كان جدودي يقصُّون علينا حكايات أغرب من الخيال على يد هذا الرجل وحبّه للفلاحين وعطفه عليهم، فلما تم قتله لم يكن له من أولاد سوى بنت وحيدة اسمها (عائشة) ذات الخمس سنوات وكانت أمها إنجليزيّة فغادرت بها إلى بلاد الإنجليز خوفًا عليها من القتلة المُجرمين وتركت وصية الأرض في يد الهانم (زينب الوكيل) زوجة الرئيس مُصطفى النحاس، والتي صارت على نفس البر بالفلاحين.

- هل تملكتم هذه الأرض التي تسكنون عليها؟

- لم نتملكها ولم يبع لنا أحد، واتخذها أجدادنا مسكنًا على أطراف التفتيش ينامون فيها بعد الإنتهاء من العمل وتارة اتخذوها مسكنًا لأنهم كانوا فلاحين أي لا ملك في الأرض لهم، كانوا فلاحين أُجراء بطعامهم وطعام أُسرهم..

ومضت الأيام وبيعت أجزاء من الأرض وجاء قانون الإفساد الزراعي -هكذا قال- ولم يُمكننا من تمليك أكواخنا لاعتبارها مُجاورة لقصر كبير، كان استجمام أمين باشا عُثمان ومن بعده الرئيس النحاس؛ وتم غلقه بعد وفاة الهانم زينب الوكيل حرم الرئيس، حاولنا مع الورثة دون أن نصل إلى حل، وسكنَّا بوضع اليد، وحاولنا مع مجلس المدينة بالرحمانيّة في دخول الكهرباء ومياه الشرب، أو الكهرباء فقط حتى يرى أولادنا التليفزيون كغيرهم من أبناء القرى المُجاورة.

- هل لديكم أجهزة تلفاز أو راديو؟
- نعم لدينا، فقد سافر أولادنا إلى بلاد أوروبيّة ودول الخليج، وأحضروا معهم من هذه الأجهزة حتى مكواة الملابس، وماكينة المخروطة وخلاط العصائر والكاسيت والمراوح والفيديو والتلفزيون ولكنها أجهزة مُعطلة في صناديقها.. وأغلبية أهل القرية الضائعة من الفقراء المدقعين بنسبة ٩٠%.
- سأذهب معك الآن بعد أن يصل المصور والمُحررة معي لنرى كل شيء على طبيعته.
- ياريت يا أُستاذ يكون لك الحسنات ومُستعد لدفع أي رسوم مُقررة.
- رسوم مُقررة؟! كيف تتحدث أيها المواطن؟!

مدام رحمة!! ليس عندنا هذا الإسم ولا هذه الصفة! فهدأ من روعي وأطلعني على ما يُفيد أن محررة هموم المواطنين تتقاضى مُقابل على بعض ما تقوم بنشره وتضعها في صدر الصفحة!! يا لها من أمور يندى لها الجبين، ولا حياة لمن تُنادي.. وما خفيّ كان أعظم!

ذهبت معه وفريق العمل الذي يُساعدني بعد أن وفَّر سيارة قمت بسداد أجرتها من جيبي الخاص احترامًا لنفسي ولمهنتي، تصل إلى مشارف هذه القرية والتي تتشح بالسواد من بعيد، وعلى حافة المصرف الذي ترد منه مياه الري للأراضي الزراعيّة تجلس النسوة للغسيل، سواء للملابس أو لأواني الطعام، ثُم تقوم النسوة بغسل جزء كبير من حجرها بالمياه لأن مآرب الحياة تعلق به من مسح ودهان..

ثُم تصب مياه المصرف على شعرها وهي ترتدي الطرحة دون خلعها ثُم تغسل وجهها.. وعلى مقربة رأيت الفتيات الجميلات جمالًا طبيعيًّا يحملن على رؤوسهن أفرع الأشجار اليابسة من المزارع والمصارف المُجاورة، وتدس بعض الفتيات في ملابسها ثمرة برتقال أو ليمونة تعطيها لوالدتها القعيدة أو تدخل بها السرور على قلب إخوتها الصغار الذي يفرحون بمُقدم أخواتهم الكبار من الحقول، ومظاهرالقسوة تبدو على أعينهم وفي وجوههم من الألفاظ النابية التي تقذف عليهم، فيهرولون جريًا خوفًا من دخولي العزبة أو صاحب الأرض، وقد يلحق بإحداهن الضعيفة فينتقم منها بصورة وحشيّة، ركلًا وضربًا بإهانة، فتتوسل إليه أن يرحمها لأنها تسعى على رزق إخوتها الأيتام، ولا عائل لهم، وهذه التوسلات قد لا تفيد مع معدومي الضمائر والفؤاد!!

نزلت من السيارة لأتفقد الأمر على الطبيعة في وضح النهار، أتأمل الأكواخ والأعشاش التي تُحيط بالقصر الكبير الذي هجره أصحابه من قديم الزمان، ويحرسه خفراء بإتقان، وانتشرت العشش على حافة المصرف مكونة من عيدان الذرة أو غاب الترع، يعيش فيها آدميين تحيط بهم الفراخ والماعز أحيانًا والبط الأسود البلدي، طلبت استضافتي في إحدى هذه العشش وأن أُجالس أهلها، فتحرَّج مضيفنا من ذلك وأكد أن بيته المجهز يستعد لاستقبالنا بالغداء الذي يليق بتعبنا وتكبدنا عناء المشوار..

فزاد إصراري على ما عنّ لي، أن يضايفني وزميلتي والمصور وسائق السيارة، لن تكون إلّا في إحدى العشش التي يطلقون عليها بيوتًا، والبيوت لها حرمات، وتكون حوائطها تسد أعين الناظرين إليها، وما رأيته لا ينم عن هذا بالمرة، فلا حرمة ولا ستر يلقاه هؤلاء القوم في أعشاشهم التي يأنف يدخلها أي كلب من كلاب الكبار الذين يعيشون في قصور القاهرة، أو حتى مدن المحافظات الكبرى.

وفي عطفة كل مجموعة من الأكواخ تجد سيدة عجوز طاعنة في السن تضع الخبز على رأسها، فلا مكان تضعه فيه، وتخشى عليه من التراب والأوبئة، قوم راضون بعيشهم، متمسكون بحياتهم وأرضهم، فقط يتمنون آدميتهم في توصيل الكهرباء فقط، فالمياه مقدور عليها بأي طريقة.

بعده هذه الجولة الحيَّة، دعانا مضيفنا إلى بيته الذي هو مبني بناء شبه حديث، فيه دورة المياه ومكون من طابقين، تجلس زوجه على حصير أنيق وأولاده يلبسون ملابس نظيفة، وزوجه سيدة تلقت قدر من التعليم، تعتني بقدر ما تتيح الطبيعة لها وفضل الله عليها. تمت دعوتنا إلى الطعام على طبلية مرتفعة عن الأرض ٦٠ سم، وضع عليها القشدة والسمن الفلاحي الذي يغلي في الزبدية المصنوعة من الهمر الطيني، تتوسطها قطعة من الجبن الأبيض (القريش)، وتزين المائدة بالجرجير والمخلل والعيش الأبيض المصنوع على هيئة رقاق..

قابلتنا مُشكلة في جلوس زميلتنا المُحررة أُلفت ذات الشعر الأصفر والبشرة الخمريّة والملابس التي لا تتناسب مع الجلوس على حصير الأرض، فتمت مُساعدتها بوسادة من القُطن لتعلو عليها قليلًا وتُحافظ قدر المُستطاع على سترة جسدها..

كان اللقاء حارًا كـالسمن البلدي الذي أمامنا، ومُضيفنا الذي يرتدي الجلباب وحرام الصوف، والحذاء المصنوع من الجلد والجورب الذي هـو من القطن.. رحب بنا شديد الترحيب وذكر أن هذا أُلقمة على ما قُسُم، وأنه عاش في العراق عشر سنوات عاد مُنذ سنوات بعد كارثة احتلال الكويت ولكنه جمع من المال ما يدخره لحياة كريمة له ولأسرته ولأربع أولاد وبنتين، كان ينزل من العراق في كل عام، وكانت زوجه تعمل في بيتها! مع أُمه في عيش هادئ وسرّ أهدأ، حتى تمكن من ثروة وفرت له ثمانية آلاف دولار، حيثُ كان العام يوفر له (٨٠٠) دولار، حسب ظروف العراق، وأخذ يمدح في صدام حسين وأيامه،

وحكمه العادل الرشيد ويؤكد أن أي مواطن على أرض العراق يملك فيها أسهم كصدام نفسه، وأن نزاع الحكومات والأنظمة لا دخل له بعيش العرب جميعًا داخل بلاد الرافدين.

وبعد الطعام قُمنا بسياحة حُرة في بيته فرأينا التلفاز والكاسيت والمروحة والمكواة والخلاط.. وكلها أجهزة تحتاج إلى الكهرباء لتشغيلها، أيضًا رأينا الغسالة العادية، كما شاهدنا حقائب حمراء اللون آتية من الخارج وكيف اتخذها دولابًا لحفظ الملابس وهناك حقيبة لأشرطة الكاسيت أبرز ما فيها أشرطة الشيخ ياسين التهامي والشيخ كشك وعدوية ووردة.. في الحقيقة أن أهم ما لاحظته في رحلتي التي أمتعت نفسي بها مشهد زميلتنا أُلفت المُحررة أثناء قيامها وقعودها، فبدت لي جميلة يستكين الجسد البراق تحت الملابس الأنيقة، وكأنني لم أشاهد جسد امرأة قط!! وهي هانم بمعنى الكلمة وتزيد عنّي أكثر من عشر سنوات في التعداد الزمني لما عمرته في الأرض، ولكنها تملك ما لا أملك، والحقيقة أن المُعجبات بي كانوا كثيرات جدًا، وكان رئيس التحرير –بارك الله فيه وفي أولاده- يُعاملني كشقيقه الأصغر.

لم أعر ذلك بالًا، ولم أكن أملك الوقت لكي أفكر فيه، كل ما أفكر فيه فقط هو صدور الجريدة وازدهارها توزيعيًّا وإعلانيًّا، وأن أراها في يد القرّاء كلما مررت على مقهى أو محلات البقالة، أو زرت نقابة أو مدرسة.

وذات يوم أتاني المشرف العام بمحررة جديدة ومعه وريقات مجهزة لباب المرأة والطفل وذكر لي أن رئيس التحرير وافق على فكرة الباب وبعث به إليَّ لكي أضعه في موضع لأي صفحة أرى أنها مناسبة، ارتفع صوتي مُستنكرًا أن محررة جديدة لم تكتب كلمة وأول أعمالها يخصص لها بابًا!! ثُم قلت هات الشغل وتدرسه في القاهرة..

فيما بعد ذكرت لي هذه الزميلة ذات الأصل والحسب والنسب، وتنتسب لعائلة نور من كبرى عائلات دمنهور وأحد روادها مؤسس صحافة البحيرة ومن أعلامها، ذكرت لي الواقعة وكيف لي أن أتحكم في مصائر الأمور رغم أن رئيس التحرير بنفسه وافق على النشر؟! فبدا لها أنني شخص مهم جدًا ظهر لها بمُطالعة العدد الصادر بروز اسمي بين الجميع ولم ينشر الباب بالفعل..

الحقيقة أنني كنت على سجيتي الكاملة، رغم أن مُراهقتي شهدت عراك النفس والتمرد في صور مُتعددة مع العلاقات النسائيّة في المرحلة الثانويّة والجامعيّة، ولكنها خفتت بشكل كبير بين الخامسة والعشرين والثلاثين، رغم أن هذه السن تتمرد فيها نفس الشاب وتطلق العنان لغرائزه التي قد تنطلق بدون رابط.

هذا المشهد الذي سردته عن القرية المظلومة في مركز الرحمانية وحوداث السرقة في دسوق، تشابه مع مشهد عايشته عام ١٩٩٢م عقب ما كان ينبغي فيه تخرجي في الجامعة، فذهبت للعمل بمزرعة يديرها خولي يمتنى بصلة قرابة، وهذه المزرعة في حدود مركز أبو حمّاد مع التل الكبير عند محطة اسمها (أبو سلابة) أو طلبه عويضة، وطلبه عويضة هذا كان أشهر عضو بمجلس الشعب أيام عبد الناصر والسادات وكانت فيلاه في هذا المكان أو قصره، فسميت عليه، وكان رجل محبوب في زمن حلمي عبد الآخر وصوفي أبو طالب وممتاز نصّار وغيرهم..

عملت بهذه المزرعة أسبوعين كـجِرفي في جنى العنب وجمع الليمون واليوسفي وكانت مساحة المزرعة ستين فدانًا في الأراضي الرملية، وكان الخولي يثق لي وكذلك الدكتور العبد صاحب المزرعة، على أنني خريج في الجامعة وكليتي تهتم باللغة العربيّة والعلوم الإسلاميّة (مُتدين)، وكانوا بالنهار يسندون لي حراسة المزرعة عند الطريق التي يسير عليها الناس، وضرورة عدم دخول الفتيات إلى

المزرعة حرصًا على الأشجار من سرقة ثمرها.. كانت الفتيات جميلات جمال أنثوي فلاحي طبيعي، فيكفي الفتاة أن تغسل وجهها من الترعة وكأنها تخرج من كوافير فندقي، وأن رنَّة قدم الفتاة الحافية تؤذي القلب والعقل وتوقظ الجوارح جميعها ، وتؤجج المشاعر الجنسيّة وفوق كل ذلك كان يرق لي بهم الحال بعد أن بدأت في التعرف عليهن ومجالستهن تحت الأشجال من ظل أوراقها الوراف، رغم كل هذا الجمال الطبيعي المخبأ وراء ملابس شبه بالية، تحاول الفتاة أن تظلل جسدها بما تستطيع، وقد تجد الثوب الواحد ترتديه الأم والبنت والزوجة وأحيانًا يكون منحة من الجيران.

قررت في المساء زيارتهم بعد أن علمت أمكنتهم بالضبط؛ حلَّ المساء وأديتُ من صلواتي ما استطعت بعد أن تناولت لقيمات يُقمن صلبي، وذهبت عنِّى خولي المزرعة الذي كان مُتزوجًا من ثلاث زوجات يذهب إلى كل واحدة في الأسبوع ليلتين، ويخلد إلى نفسه ليلة في الأسبوع يقضيها مع أهل القرية في حديث سامر حتى الساعات الأولى من الصباح.

قررت أن امتطي فرس المزرعة الأحمس القوي الذي أعرب عن فرحته بصهيله عندما علم بخروجه معي إلى الفضاء الواسع.. عجبت أشد العجب فقد علم الفرس مقصدي وذهب في الطريق الذي أريده دون مواربة حتى وقف بي أمام منازل القرية، ثُم صهل صهيلًا كأنه ينادي على قاطني البيوت هذه، والأعجب أن الأطفال خرج منهم عدد يتصايحون في فرح: جاء سلّام، تعالى يا سلّام!! فـقدم هو ناحيتهم وكأنه يسلم عليهم وهم يرحبون به.. وسرعان ما تسابقت الفتيات الجميلات الائي رأيت منهن نفرًا في عرض النهار، ولكن الصورة مُغايرة تمامًـا، الصورة مُبهجة ومُفرحة، ينعكس ضوء المصباح الذي يستمد وقوده من الكيروسين سواء بالبانورة الزجاجيّة أو بدونها على شعر الفتيات وصدورهن وسيقانهن المصقولة ذوات الكعوب المستديرة.

تعالى يا أحمد، تفضل أنتَ مش غريب، وأخذوا بلجام الفرس بين أيديهم وأدخلوه حظائرهم وهم يقدمون الفول المدشوش له تحية وتقديرًا، كما قدموا لي من الطعام الفول المدمس المزود بالزيت والليمون وبجواره قرون الفلفل الأخضر والأحمر والعيش الفلاحي بعد أن أجلسوني بينهم؛ رجال يحوط بهم نساؤهم ويتزينون بأطفالهم، مشهد مفرح ومحزن ومبهج يثير الإعجاب والتساؤل؟! .. أين حجرات النوم؟ أين حجرات الجلوس؟ أين صالون المسافرين؟ أين الثلاجة؟ أين التلفاز؟ لا شيء من هذا كله سوى أجهزة الكاسيت ذات الخرفشة السوداء، يذيع ما به ببطاريات ضعيفة يتم إستهلاكها سريعًا.

أين الكهرباء؟ أين مياه الشرب؟ الأسئلة وكثرتها تثير الإعياء في جسدي، مما أسكب دموعي على خدي، فقامت فتاتي الجميلة بمسح دموعي بجزء من ثوبها وإحتضنتني بذراعها في حنان أخوي كبير: يا أحمد هذه ليلة مبهجة لا داعي للتوتر ولا داعي للمؤثرات السلبيّة؛ نحنُ بخير طالما حضرت أنتَ إلينا أيها المُتعلم المُثقف الهادئ الجميل.

حاولوا أن يدخلوا البهجة إلى نفسي وحاولت معهم فتأرجحت بين ثنايا أفكاري عمقًا وتأثيرًا.. تداعت نفسي لكي أسأل عن أحوالهم في التعليم فوجدتها في جاهلية أولى، الفتيان فقط هم من يتعلمون والقليل منهم فقط هم الجامعيون، ويرحلون عن القرية إلى البندر ويقطعون صلتهم بذويهم لأنهم منهم يستعرون أين البيوت! إنّي أرى فقط عيدان الذُرة وغاب الترع حوائط وسدود وسقوف، والكانون والفرن البلدي الذي تسرح من أجل إيقاده الفتيات نهارًا، ففيه العيش يخبزون والأطعمة يسوون، والله بمصائرهم العليم.

قضيت من الوقت ما طال، بحلو الحديث الأشهى ارتواء، والشاي لا ينقطع عبر الكانون بعد أن فرغ وابور الجاز من وقود الكيروسين، لا من أزمته يعانون، ولكن من قلة النقود التي دائمًا هم لها من المشتهين، ولله الأمر من قبل ومن بعد إلى يوم الدين.

وبنفس فرحة القدوم كانت فرحة الخروج من هذه الأوكار التي نشأت على جانب التفتيش من الأزل القديم، فهؤلاء كتب عنهم يوسف إدريس ومحمد حسين هيكل ويحيى حقي ولم يكتب عنهم نجيب محفوظ وكتب إشارات عنهم توفيق الحكيم.

في عام ٢٠٠٢م تولى صديقي الدكتور حامد شتلة منصب محافظ الشرقية، فعدت إليه مهنئًا ومباركًا عبر مكتبه بمدينة الزقازيق الباسلة، فاستقبلني تملية أبو سلالية فرحًا وطربًا بمقدمي فكان لي منه طلب واحد : إدخال المرافق الكاملة لأهالي تملية أبو سلاية وتمكينهم من عيشهم وفتح زاوية صغيرة للصلاة كمسجد ومدرسة ذات الفصل الواحد ويعمل بعد الظهر فصل محو للأمية..

قرر سيادة المحافظ بحث طلبي ووضعه تحت الدراسة وتقديم تقرير مفصل عنه خلال أيام، ووجه للسكرتير العام الذي حوله إلى رئيس مركز ومدينة أبو حماد الذي سارع في تلبية قرار المحافظ بالدراسة والعرض وإصدار أهم التوصيات التي حققت معظم ما طالبت به، فأشركت منظمات المُجتمع المدني (الروتاري) في إنارة المنازل وتوفير فرص عمل للسيدات بالناحية، ورغم عشر سنوات على زيارتي الأولى لهم، إلّا أنهم استقبلوني بالحفاوة وتذكروني وقبلتني النساء قبل الرجال واحتفلوا بي وحاولوا إبقائي معهم بعض الوقت ليشبعون بي – كما قالوا- لكن ظروف البروتوكول وسيارة مجلس المدينة وأعضاء الروتاري كانت تمنعني من تركهم والإذن لي بأن أحظى بضيافتهم، فشربت الشاي من أيديهم وقبلت دعوة عقد قران وزفاف أحد شبابهم على بنت من ناحيتهم، لم يصل بهما قطار التعليم سوى المرحلة الإبتدائيّة؛ ولكنهم سُعداء بأنهما من حظوة فاكي الخط وقراءة الجوابات!!

نعم، لقد أحسست بالرضا يتسلل إلى نفسي مرات عديدة وأنا أقدم الخير لأهله.

****

الفصل الحادي عشر

١٥:٨ سبتمبر١٩٩٢

"بني غازي بين الرحلة والراحة"

أعتقد أن الصحفي بمعناه الواقعيّ لابد له من مُمارسة السياسة والتمرس عليها، فتجد صحفيّ روز اليوسف ودار الهلال لمعوا وتنجَّموا في الوسط الإعلامي كمفيد فوزي وعادل حموده ووائل الإبراشي ومحمود سعد وإبراهيم عيسى ومُصطفى بكري .....إلخ

نعُدُّ منهم ولا نعددهم، تجد هؤلاء تميزوا عن أقرانهم في الصحف الحكوميّة الأُخرى، فلا صحافة قوميّة في مصر بعد ثورة يوليو ١٩٥٢م، فكانت البلاغ والمصري والسياسية والمؤيد والمُقطم وغيرها من صحف كثيرة تتسم بالقوميّة أي نشر جميع الآراء المُعبرة عن أطياف المُجتمع تأييدًا أو مُعارضة، ولا تكون بوقًا للحكومة فقط! أما الصحف المُسماة بالقوميّة فيما تلا ثورة يوليو حتى ثورة يناير، فلا قوميّة لها إنما هي تُسمى بالحكوميّة.. والمُعارضة تُسمى بالمُعارضة ولا ثالث بينهُما، لعدم وجود الصحفي المُحترم في جوٍ من الحُريّة يستطيع أن يتجاوز كل هذه الصِعاب ويُصبح واقعيًّا ومُحايدًا وهما اللفظان الأقرب إلى معنى القوميّة، حتى الأُستاذ هيكل نفسه لم يكن يومًا قوميًّا بمعنى الكلمة في عهد عبد الناصر أو السادات..

محمد التابعي سار على خُطى يوليو وإحسان عبد القدوس رسم طريقًا لنفسه، بعد أن رفض مُغريات عبد الناصر في أن يُصبح بوقًا للثورة،

ورشح له هيكل ليؤدي هذه المُهمة والذى كان لديه استعداد في ذلك ونجح في مهمته أتمَّ النجاح..

حاول الولد الشقي محمود السعدني أن يتمرد على السادات ولكنه خشى في مُنتصف الطريق وهرب إلى الكويت ولم يعد رغم إلحاح السادات عليه: إرجع يا محمود لا تخاف!

إنّ مسألة المؤهل من المسائل المُهمة في عمل الصحفي والناقد وأُستاذ الجامعة، فعلم جرجي زيدان مؤسس دار الهلال ١٨٩٢م يفوق علم أباطرة الروم وكان يتمنى أن يكون أُستاذًا في الجامعة ولم ينل مُبتغاه لـعدم حصوله على الدكتوراه، رغم أن مؤلفاته تُعطيه مائة دكتوراه، كذلك عباس محمود العقاد الذي احتار في تفسير إبداعاته الأدبيّة والنقديّة عتاة اللُّغَة؛ ولكن حصوله على الإبتدائيّة فقط وقيل راسبيها حال دون أن يُدرِس في الجامعة وكان يتمنى ، وكان ينقم على طه حسين ويستهجنه بالرمز لاسمه (بالدكتور) فقط.

ولا ننسى أن الأُستاذ الجيد كان ينتقل من الإبتدائيّة إلى الإعداديّة والثانوي ، ثُم يرقى للتدريس بالجامعة كـأحمد الشايب وغيره. ولا ننسى أن مُهمة التدريس تختلف عن مُهمة الإعلامي، فالإعلام بوسائله (صحافة – إذاعة – تليفزيون) يتطلب الإبداع ولا شيء يُساوي الإبداع، ولكن عُقدة المؤهل لازمت المُبدعين من فطاحل قطاعات الإعلام الثلاثة حينًا من الدهر، الأُستاذ هيكل حصل على دبلوم المدارس الفنيّة التُجاريّة، الولد الشقي محمود السعدني حصل على دبلوم المدارس الثانويّة الزراعيّة، جمال الغيطاني حصل على دبلوم المدارس الثانويّة الفنيّة للصنايع.. وهؤلاء الثلاثة قيدوا في جداول المُشتغلين بنقابة

الصحفيين وقتما كان الإبداع والإبداع وحده هو الذي يُحدد مصائر الأمور وتوجهاتها..

وبعد تغيير قانون نقابة الصحفيين وصدور قانون جديد حمل رقم ٧٦ لسنة ١٩٧٠م فرض ضرورة حصول المُحرر على مؤهل عالٍ شرطًا لقيده بعضويّة نقابة الصحفيين ، وشرط عمله في صحيفة ورقيّة دوريّة وشرط عضويته في الإتحاد الإشتراكي المصري.. هذا القانون لم يغير بعد ويظل هو الدستور المُنظم خشيّة التلاعب في صيغة المؤهل رغم انتفاء شروط أُخرى أنبرت... يوسف القعيد الصحفي والكاتب المُبدع هو الوحيد الذي حصل على عضويّة نقابة الصحفيين بعد هذا القانون عام ١٩٧٦م باستثناء من رئيس الجمهوريّة نفسه رغم حصوله على دبلوم المدارس الثانويّة التُجاريّة من مدرسة إيتاي البارود المُخصصة لذلك.

سيد عبد الفتاح الرسّام الكبير بدار أخبار اليوم كان فنانًا مُبدعًا ولم يحز عضويّة النقابة لحصوله على دبلوم تجارة فقط...

وكان معمول من أيام السادات بنظام المنح في معهد التعاون الزراعي ومعهد التعاون الإداري للموظفين لاستكمال دراستهم الجامعيّة في كل المهن حتى المحليات نفسها. وحينما صدر قانون التعليم المفتوح عام ١٩٩١م والعمل بـه عام ١٩٩٣م لاستيعاب كل من لديه الرغبة في استكمال دراسته أن يتقدم إليه مهما كانت سنة ومهما كان مؤهله شرط أن لا يقل عن متوسط، ومهما كان له عمل أم لا... والدراسة فيه كانت شبه المجان بنظام المواد في التيرمات ، كل مادة عشرة جنيهات في خمسين مادة أو أربعين في ثمانية تيرمات أي فصول دراسية.. وتم تعيين مُعيدين وكان الدور على تشكيل إطار وهيئة تدريس لـه لولا تغيير الأمر والإستغناء عن خدمات هؤلاء وتسريحهم في سوق العمل...

(نجوى إبراهيم) ماما نجوى الإعلاميّة الكبيرة حصلت فقط على الثانويّة العامة ولذلك لم تتبوأ منصب رئيس قناة أو رئيسة التلفزيون مثلًا!! وأرادت أن تستكمل تعليمها عند بُشرى التعليم المُفتوح، لكنها لم تستطع وخوفها من وجهها المألوف تليفزيونيًّا وسينمائيًّا أن يكون معوقًا لها فى احتكاك الطلاب وتنمرهم ؛ وقد كان! ولم تكمل، وأرادت لجنة خاصة بها بعيدة عن الأعين فرفضت ذلك جامعة القاهرة واعتبرتها كأي طالب يدرس..

على فايق زغلول صاحب الصوت الشهير في الإذاعة عبر برامجه (الغلط فين – مسرح المنوعات – برامجنا في الميزان) عبر إذاعة البرنامج العـام في السبعينيات والثمانينيات وشطر التسعينيات كان مؤهله متوسط، فلذلك لم يتبوأ منصب قيادي سوى مُدير إدارة برامج المنوعات وغير ذلك من مناصب الدرجة الثانية.

وفي غفلة من الزمن وإبان العقد الأول من القرن الحالي حدثت هجمة من إصدارات الصحف الحزبيّة والمُستقلة علاوة على صحف ومجلات الحكومة المُتعددة.. استقبلت نقابة الصحفيين في جداولها ما لم تستقبله في تاريخها مُنذ الأربعينيات.. عشرة آلاف عضو جديد وكانوا قبل نهاية القرن العشرين لا يتجاوزون الخمسة آلاف عضو؛ ومع هذه الكثرة في فى التعيين بالصحف وتعيين الأقارب وأقارب الأقارب، علاوة على تعيينات الباراشوت دون أن يتكبدوا آلام المهنة متمثلة فى أولاد الكبار والمرضي عنهم ورؤساء المصالح التي تدر الإعلانات باعتبار نجوميّة المهنة وعلاقاتها، لم تستطع النقابة أن ترفض لصريح القانون، كذلك تم الزج بتعيين الكثير في ماسبيرو ومدينة الإنتاج الإعلامي والقنوات التليفزيونيّة الجديدة التي إنتشرت في ربوع مصر كلها.

وسط هذا الخِضم لجأ بعض الصحفيين إلى تزوير شهادات جامعيّة لإجراءات التعيين واستكمالها، وقد تعددت هذه الحالات وبلغت

العشرات منهم صحيفة حزبيّة عُين أربعة مُحررين وحاولوا أن يسووا الأمر بتغيير واستبدال الشهادات المزورة بشهاداتهم التي حصلوا عليها بعد ذلك من التعليم المفتوح، وقد وصل أرباب التعليم المفتوح إلى مناصب عليا في مؤسساتهم الصحفية .

اضطرت النقابة إلى إصدار قرار بمنع قيد أي مُحرر بنقابة الصحفيين حاصل على شهادة التعليم المفتوح وكذلك نقابة المُحامين التي كانت تجيز قبل ذلك قبول الخريج للتعليم المفتوح إذا سبق ذلك ثانوية عامة، وهي اللائحة الأصلية للتعليم المفتوح تمحورت بعد ذلك وقبول كل من يُريد الإلتحاق بالحقوق شرط الحصول على مؤهل ثانوي زراعي – صناعي – تُجاري وثانوية عامة بالطبع..

رغم رفعهم دعوى قضائية بذلك وقد خسروها ولم يتكفل التعليم بالتعويض للاعتراف بشهادته في الدستور والقانون، وهناك طائفة من المُبدعين في الصحافة والإعلام لم يلجأوا بتاتًا إلى التعليم المفتوح واعتبروا ذلك مضيعة للوقت، وهم ليسوا في حاجة إلى ذلك، فهم أنداد مع الأكاديميين الذين قد يلقنونهم العلم، وهؤلاء النقاد في المسارح ودور السينما وقطاعات الثقافة... إلخ

وإتضح بعد ذلك أن بعض هؤلاء لم يحصلوا على دبلوم المدارس الفنيّة ولديهم فقط إعدادية عامة أو راسبيها ، وأحيانًا شهادات محو الأميّة وتجدهم في الندوات والمُناظرات تحسبهم حاصلين على الدكتوراه، وبعضهم يُلقب بالدكتور وليس بدكتور، ولكنها عادة لم تحسمها الأيام ولا السنون.

كذلك كانت -ومازالت- نقابة المهن التمثيليّة لا تقبل في عضويتها من لم يحصل على المؤهل العالي، وتكتفي بإصدار تصريح للبعض للتمثيل في الأعمال الخاصة بالتليفزيون والإذاعة وحاولت فرض

سطوتها على الأعمال الخاصة دون جدوى.. فيفي عبده (إعداديّة) وقس على ذلك، وأن أكاديمية الفنون اشترطت الإبداع فقط دون المؤهل للحاق بالدراسة فيها وكان الأول شرط المؤهل العالي وكل قسم من أقسامها لا يزيد عن ثمانيّة طلاب في الإخراج والسيناريو والتمثيل وخلافه.

وحدث يومًا أن كتب رئيس مؤسسة حكوميّة صحفيّة مقالًا رصاصات في حائط أكاديمية الفنون بالهرم يستنكر فيه عدم استجابتهم لمطلبه بإلحاق طالب يرى فيه الأحقيَّة، ورغم ذلك فقد رفضته الأكاديميّة وقطَّعَت كارت التوصيّة، لدرجة أنه كتب عنها أنها دولة داخل الدولة، ولم تأبه الأكاديمية بذلك ولم تعر اهتمامًا لمساندة فاروق حسني وزير الثقافة لها، وما أدراك ما فاروق حسني إنه وزير الثقافة الذي لم تطله يد النقد، ولم يستطع برلماني أن يحظى بتوقيعه لتعيين موظف كما كان الحال بوزارات أخرى، ولم يستطع أن يتطاول عليه أحد رغم أنه عَمُر ثلاثة وعشرين عامًا وزيرًا للثقافة مُنذ عام ١٩٨٧م – ٢٠١١م، ولم يتم القبض عليه عقب أحداث ثورة يناير، ولم تتمكن الأجهزة الرقابيّة من رصد أي مليم زيادة في ثروته فكان زاهدًا في الدُنيا والولد والأُسرة علاوة على تقشفه وثراء أصله المُمتد إلى باهوات ما قبل يوليو..

إحتال يومًا عفريت من الجن حاصل على مؤهل متوسط على رئيس لجنة إدارة انتخابات الصحفيين في قبول طعنه لوقف الانتخابات لعزمه على الترشح وهو محكوم له حكم محكمة بالعضويّة، فرفض رئيس اللجنة تلقي الإنذار منه وإدراج طعنه أمام أعضاء الجمعيّة العموميّة، فما كان من فايز إلّا أن عرف عُنوان بيت رئيس اللجنة وكان بالعجوزة، فأخذ محضر من هذه المحكمة الجزئيّة وشحنه شحنة عاطفيّة

شديدة حتى البكاء .. يتوسل إليه توصيل الطعن لـبيت هذا الرجل لأنه يمنع عنه إرثه ويدعي أنه رجل مهم في الدولة.

ولا يهمك يا سيدي لا تبكي أنا همضيهولك وأبصمه كمان لو حتى سيادته وزير، أنا طالما الطعن سليم من محكمة أُلزم به أي شخص بقبوله وإلّا العزل والحبس، وأخذ يُعدِدُ هذا المحضر تاريخه أنه اقتحم على وزير مكتبه وجعله يوقع بالقوة ومرة ثانيّة كاد يضرب مرتضى لأنه حاول رفض التوقيع، رغم أن حجم لحم وعظام هذا المحضر لا يتجاوز الأربعين كيلو ؛ ولكنه عندما يتحدث كأنك أمام هتلر النازي زعيم ألمانيا أو أمام ريتشارد زعيم الروم!! -ما علينا- المهم استفاد صديقنا فايز من ذلك تمام الإستفادة، وذهب مع المُحضر بعد أن خصص له سيارة لتوصيله وقام بفتح الباب الخلفي له وإعطائه التحيَّة، وكنَّاه بمعالي الباشا الوزير والمُحضر، و مع كل كلمة ثناء يزداد نفخًا في بطنه وأوداجه وفرد أذرعته.. وصلت السيارة عند مسجد الكواكبي وتم فتح الباب للباش مُحضر وسط حراسة من فايز والسائق مع التعظيم له، أمام بوابي العمارة :

افتح الباب لسعادة الباشا، اتفضل يا فندم.. الأسانسير يابني لـسعادة السفير، كل ذلك وحركة بوابي العمارة تزداد ورعبهم من الباشا لم ينتهِ، حتى نزل من الدور الرابع وغادر العمارة وهم يلهثون وراءه مع السلامة يا سعادة الباشا، فدس في أيديهم أوراق البنكنوت فئات العشرين جنيهًا كـقهوة لهم، كل ذلك على حساب صديقنا فايز.

عندما صعد الباشا مُحضر طرق باب الشقة المقصودة فرأى مدون عليها اسم شخصيّة هامة، وكان عنده خلفيّة أن هذا الرجل لا مهم ولا حاجة إنما ينتحل الأهمية، فلم يأبه بذلك وأكد لفائز أنه قبض وحبس

عشرات من مثل هؤلاء منتحلي الصفة، قبل ذلك ويعرفهم بسيماهم.. لا تقلق!!

طرق الباب بيده ولم يشأ أن يدق على الجرس، فخرجت زوجة المسئول، وتساءلت من أنتَ؟

فقال : أنا القدر المكتوب، فين علي؟

علي!! علي بك في شغله المُهم

هههههههههه سيبك من الكلام ده! اللعبة ظهرت وخلاص.. إمضي هنا وهاتِ بطاقتك بسرعة نيابته عنه لأحسن أحبسك أنتَ وهو..

ارتعدت السيدة وارتبكت ولم تكن تدري ماذا تفعل مع إصرار هذا الرجل الفظ على تنفيذ أوامره محاطًا بحراسة رجلين يحملان الحقائب له والماء ويمسكون بالكاب، إلى أن أحضرت بطاقتها ووقعت عن زوجها علي وهي سيدة من صعيد مصر الجواني تغرق في شبر ميه!! وخشيت على زوجها الذي عاد مساءً وقصَّت عليه الحكاية وهي ترتعد وتحمد الله على سلامته، واسلمته الإنذار الرسمي فقرأه وعلم أن هذه لعبة فايز!! طيب..

اتخرب بيت الباشا مُحضر وتم نقله إلى واحة سيوة ثم الوادي الجديد فمطروح فالسلوم، كل ذلك في شهر واحد ، مع التحقيق معه لأنه قام بفعل مُشين بإنذار جهة سياديَّة لا حق له في ذلك إلّا بأمر رئيس المحكمة أو النائب العام.

وبكى المُحضر وبكت الحارة التي يسكن فيها، وأغمى على زوجه وصرخ أولاده ولا حياة لمن تنادي!! وبعد ثبوت سلامة نيته وجهله عاد إلى عمله بعد عام من المرمطة وقلة القيمة والتحقيقات التي لا تنتهي:

أنا مش باشا، أنا حمار سيدس أنا بأكل تبن وعلف مع المواشي .. أنا بأروث مكاني قبل ما أنام يا بيه، اعذروني .. ضحك عليّ فايز.

نجح فايز في ملعوبه ولم يُبت في عضويته بالنقابة ولم يفلح في دخولها رغم أنه يمتلك حِيل سحرة فرعون.

رحلة بنى غازي٨-٩-١٩٩٢

ووسط هذه الحكايات الكثيرة رشَّحني الحزب إلى السفر إلى الجماهيريّة الليبية لحضور المُخيم الأول في مدينة بني غازي لتحالف قوى الشعب بدعوة حركة اللجان الثوريّة الليبية، وكان السفر يتطلب مُمثل عن كل مُحافظة، ومع ذلك لابد أن يكون مُسجِلًا نشاطًا هامًا في الحزب يُميزه عن غيره في فرصة السفر التي كانت في النصف الأول من سبتمبر ١٩٩٢م، تبدأ مع إطلالة ثورة الفاتح ومُناسبتها في الأول من أيلول، ذكر تآمر عبد الناصر على الملك البرديسي بإزاحته وتولى معمر القذافي تسيير أمور ليبيا وإدارة شئونها.

كان الحظر الجويّ مُطبق على الجماهيريّة الليبيّة الشعبيّة الإشتراكيّة العربيّة العُظمى، فاضطررنا إلى السفر برًّا بأتوبيس سياحي استغرقت رحلته أربع وعشرين ساعة في مسافة تصل إلى (١٢٥٠) كم من القاهرة إلى الإسكندريّة (٢٥٠) كم ومن الإسكندريّة إلى السلوم (٥٠٤) كم ومن هضبة السلوم إلى بني غازي (٥٠٠) كم ومن بني غازي حتى طرابلس (١٠٠٠) كم ومن طرابلس حتى حدود تونس (٥٠٠) كم، وتوقفت رحلتنا فى بني غازي.

إذاً تمتلك ليبيا وحدها ألفين من الكيلومترات بطول ساحل البحر المتوسط وتتملك مصر ألف كم فقط بين بورسعيد والإسكندريّة (٥٠٠) كم ونفس المسافة بين الإسكندريّة ومنفذ السلوم.

كانت الرحلة رائعة أجمل من الخيال في تخيلاتنا إذًا ما أردنا التخيُّل، فقد تعطل الأتوبيس بنا في الطريق الصحراوي وجلسنا على الرمال (٢٧) عضو من بيننا سيدتين وثلاث بنات، وأحسست بجو الأُسرة يلتف حول حياتي بين الألفة والهدوء وتغيير الجو الذي ألفته ودرجت فيه.. أخذ كل منّا بأطراف الحديث على الرمال الناعمة وصممنا على محاربة المدير الإداري للوفد الذي كان ذا أفق ضيق، عصبي، لا يقدر المسئوليّة..

تم تصليح العُطل وسرنا في الليل عبر الطريق الرائع بين القاهرة والإسكندريّة حتى مرسى مطروح ومن بعده طريقًا ضيقًا ريفي –قل ذلك- حتى حدود السلوم مرورًا بمنطقة سيدي براني.

هُنـا بدأ الشكل العربي في الإنسان يأخذ منحى آخر ويتحول رجل هذه القرى المصرية مثله مثل الليبي في طبرق ومساعد المتاخمان للسلوم، واتضح أن هؤلاء قبيلة عربيّة واحدة تُسمى (أولاد علي) اقتسمتها الحدود التي خطتها دول الإحتلال بجنود المُستعمرين وانشق الوطن الواحد إلى دويلات صغيرة حاول رجل القوميّة العربيّة جمال عبد الناصر جمع شتاتهم ولم يفلح.

طلع النهار علينا وكنت أشاهد صحراء ليبيا الواسعة ولا أرى سوى الإبل تجوب الرمال والجبال القاحلة لكي ترعى الحشائش، وحدث أن توقفنا في الطريق بين مساعد وبني غازي عند كافتيريا فوجئت بأنها ملكًا لرجال من سوهاج، مكتوب على لافتتها (كافيتريا أبناء سوهاج) ويعمل بها أهل سوهاج وأهل ليبيا جنبًا إلى جنب في حميمية ويُسر.

تناولنا وجبة الغداء بثلاثة دنانير ليبيّة لكل فرد وكان الدينار الليبي وقتها يُساوي (١٦٠) قرش من أربعة جنيهات ونصف بفعل الحصار

المفروض على الأشقاء. وكان الجنيه المصري يباع به ويُشتري في بني غازي كالدينار الليبي بالضبط وكانت الأسواق يعمرها مصريون نعرفهم بسيماهم.

حطَّت رحالنا في مدينة بني غازي قُبيل المغرب بعد رحلة شاقة استمرت ٢٤ ساعة بالتمام والكمال -كما ذكرت- منها أربع ساعات عُطل بالطريق، فوجدنا وفدًا من حركة اللجان الثوريّة في انتظارنا عند مدخل المدينة لأنهم بلغوا إشارة من النقاط الأمنيّة بوصولنا، فاستعدوا لذلك، وقادونا إلى بهو القرية السياحية التي كانت مُعدَّة لنُزُلِنا والإقامة فيها، بعد تقدم واجب الضيافة في بهو الإستقبال تركونا نصعد إلى حجراتنا لكل فردين حُجرة واحدة ذات سريرين، وحمام داخلي، ببساطة فندق خمسة نجوم ولأن القريّة حديثة العهد بالعمل وتحتضن شاطئ البحر المتوسط من جهتها، فقد قضينا فيها قُرابة الأسبوعين في تمام الراحة والهناء.

كان معي بالحجرة زميل من محافظة أسيوط يعمل إمام وخطيب ومدرس بالأوقاف، ويدخن السجائر، ويعيش كأي شاب عادي في الثلاثين دون أي قيود لـوظيفة الإمام والخطيب، اللهم إلّا عمل وظيفي يتقاضى عليه أجر والسلام..

كان مُخططًا لنـا برنامج من حفل الإستقبال إلى حفل التوديع، حاولنا بقدر الإمكان المُحافظة عليه حتى تقابلنا مع الأُستاذ مفتاح عبد السلام بكر مُحافظ الإقليم -آنذاك- والذي ذكر لنا أن جذوره مُستمدة من مُحافظة المنـيا، وتوحي الملامح بذلك واللهجة ومدى حبّه للمصريين.

تخلل البرنامج جولة حُرة يقوم بها عضو الوفد بالتجول بمفرده أو مع أحد زملائه أو بصحبة ليبي من حركة اللجان الثوريّة، فرغبت في التجول بالمدينة الساحرة والتي تشبه مُحافظة الإسكندريّة بشكل كبير في طيب هوائـها وعوائد أهلها، إلّا أن ندرة سكانها بالقياس للإسكندريّة

وضعف حركة التجارة بالمُقارنة، يؤدي إلى فروق طفيفة، وفي سياحتي الحرة لفت انتباهي وجود راية حمراء على أحد المنازل وكأن أهله يشجعون الأهلي، ولكن أُجبت بأن ذلك دليل على أن هذا البيت فيه عُرس زواج، فتعلق هذه الراية لكي يشاهدها أي مار، فيقوم بالتوقف عند البيت ويجلس في حوشه ليتناول طعامه وشرابه في جو أشبه بالولائم بدون دعوة، فتحلُّ الراية محل الدعوة الشخصيّة.

قُمنا بزيارة إلى مصنع الشافي ضمن الزيارات الرسميّة داخل البرنامج، وتم الشرح لنا داخل المصنع الذي هو بمثابة البيبسي الكانز والكولا عندنا الآن، فلم يكن بعد وصلت (الكانز) بشكلها المُتعارف عليه عندنا في مصر، وأكد لنا مدير المصنع في شرح على السبورة أن المصنع تقيمه الدولة على نفقتها من عوائد النفط من تشييد وآلات ومواد خام وتتركه كامل المرافق ليتقدم له العمال الراغبين في العمل كلٌ حسب مهارته بنظام النقاط كالآتي:

المؤهل العالي ذا الخبرة يحظى بعشرين نقطة من صافي الربح ويصبح له نفس القدر من الملكية له ولأولاده في حالة العجز أو المعاش، والمؤهل العالي بدون خبرة (١٨) نقطة، والمؤهل الفوق المتوسط بخبرة (١٦) وبدون (١٤) نقطة، والمؤهل المتوسط بخبرة (١٢) نقطة وبدون (١٠) نقطة، أما الشخص بدون مؤهلات يحمل خبرة (٨) نقاط، والعادي بدون خبرة (٦) نقاط.

وهكذا بعد سداد فواتير المحروقات والمواد الخام يتم تقسيم صافي الربح بالنقاط التي ذُكرت سلفًا، ويتم تحديد ساعات عمل حتى لا يخاطر العاملون في المصنع بعمل زيادة؛ فيؤدي إلى تضخم الإنتاج وركوده في السوق، لأن كل العاملين بمثابة شركاء في المصنع والكل يعمل ولا وجود لمُتكاسل لأنه في هذه الحالة يضر بالمصلحة العامة؛ والأهم من ذلك يتم انتخاب مجلس إدارة للمصنع من جميع العاملين ممثل شخص عن كل فئة من المذكورة، مثل المؤهل العالي بخبرة يتساوى مع من

بدون مؤهل وبدون خبرة في حق الإدارة والإنتخاب والكل يخضع لإدارة المنتخبين من العمال وله الشخصية الاعتباريّة، من هُنا تنهض الصناعة بحسن السمع والطاعة وتزدهر كل مقدرات الدولة بفضل أبنائها جميعًا.

حائط المبكى١٢-٩-١٩٩٢

زرنا ضريح المناضل عمر المختار الذي حارب الطليان حتى قتلوه وأسلم الروح في سبيل ليبيا وهو مرفوع الرأس، وأطلعونا على المخابئ التي كان يحارب الإحتلال من خلالها في الجبال والوديان، ووجدنا أناس ليبيين يبكون عند هذه الآثار على نضال عمر المختار، وتعتبر هذه الزيارة بمثابة عمرة يؤديها الليبي في بلاده وعلى سنة العقيد وسدنة حكمه، أما حائط المبكي الثاني فعند تمثال الرئيس جمال عبد الناصر في أطول شارع بمدينة بني غازي، منه يصل المواطن إلى فندق (أوزو) العميق في مياه البحر المتوسط والذي تصل إليه قدم الآدميّ بشارع طويل لا يقل عن ثلاثة كيلو مترات وهو فندق مياهه حلوة يجوز الشرب منه من أي حنفيّة عكس القريّة السياحيّة التي كنا نقيم فيها ؛ فمياهها مالحة لا تصلح سوى للاستحمام والأغراض الأخرى، كان يجتمع نفر من المواطنين الليبيين ويجلسون على الأرض في موضع على الأقدام ويضعون الرؤوس بين الأكُف على الرُكَب، ويبدأون في تشغيل المناحة بطريقة مُعينة وأوقات مُعينة على الزعيم الراحل الذي أختطفته يدُ الردي، وهو مازال في ريعان الشباب دون أن يحقق آمال الأُمة العربيّة في وحدتها المنشودة، وتبدأ حلبة الندب والعويل تحت تمثال عبد الناصر.

لا إله إلّا الله، فلو نطق مواطن أصيل أو وافد بكلمة ضد عبد الناصر وسمعه أي متلصص من حركة اللجان الثوريّة يتم جلده أو حبسه أو حتى إهدار دمه في حالة مثلًا أن يلعن عبد الناصر، ويجلد في حالة إنتقاده ويركل بالقدم إن لم يعظم عند المرور بتمثاله.

حركة اللجان الثوريّة كانت هي الحاكم والآمر الناهي في الشعب الليبي، وهم قوم لا يعلمون، متفرغون للسياسة والتلصص على أحوال الشعب الليبي المُكافح تحت راية العقيد معمر القذافي، وقد علمنا أن رتبة العقيد هي النجمتين والنسر على كل كتف كما هو معروف وهي آخر رتبة وصل إليها معمر وقام بالثورة من خلالها في الفاتح من سبتمبر (آيلول) ١٩٦٩م، وخلع الملك البرديسي المستبد والذي بلغ من العمر أرذله، فضاعت منه مقاليد الحكم على يد صبي من صبيانه، وما كان العقيد ولا غيره أن يخلع الملك البرديسي لولا تدخل عبد الناصر ورجال ثورته بإزاحة الملك وتصعيد معمر إلى سدنة الحكم، فتوقفت الرتب العسكريّة في ليبيا عند العقيد ولا يصل إليها أحد سوى القذافي ولا يتخطاه أحد!!

يقوم العقيد أحيانًا بثورة من الجماهير ضد حكومة ليبيا بسبب الغلاء مثلًا أو التقصير في الخدمات من صحة وتعليم باعتباره قائد ثورة الفاتح، والتي تستمر ما بقيت الحياة؛ ليؤكد لشعبه أنه معهم من خلال تلاوته كتابه الأخضر الذي يمثل روح الدستور الليبي وتنال قداسته مرتبة تالية بعد كتاب الله القرآن الكريم، فمن يقع الكتاب الأخضر من يده يدخل السجن، ومن يلقه على الأرض يُعدم.

ضمن برنامج الزيارة ذهبنا يومًا إلى زيارة النهر الصناعي العظيم ذا المياه العذبة والذي نقب عنه العقيد واكتشفه ، وكان بمثابة نصر عظيم وفتح كبير على الجماهيريّة وإن كانت مياهه على بعد عميق من

سطح القشرة الأرضيّة، وقيل أنه مسروق من مياه النيل!! وقيل أنه من باطن الأرض، وكان يكفي لأغراض الشعب الليبي سنوات بملئه في زجاجات ويباع للشعب بمبالغ زهيدة، ومياهه تشبه مياه واحة سيوة في مصر التي لا تبعد عن هذا النهر أكثر من (٦٠٠) كم.

كان طعامنا في الإفطار ما تشتهيه الأنفس من الألبان وزبادي ومربى وجُبن بأنواعها في أوبن مطعم، والغداء لحوم وفراخ بكميات كبيرة جدًا تفيض منَّا بقدر ما نتناول منها، والعشاء أيضًا لحوم وفراخ مثل الغداء تمامًا، وكنّا نفضل زجاجة المياه المعدنيّة على كيلو اللحمة أو نصف الفرخة، وقد أُصيب بعضنا بمغص وترجيع في بادئ الأيام ونُقل بعضنا إلى المُستشفى، ولكن طبيعتي الصعيديّة حالت دون التعرض – والحمد لله- للأمراض التي تأتي من الأوبئة وتغيير الجو.

عكّر صفو رحلتنا زميل لنا كان ممثلًا لمُحافظة البحيرة يدعى حسن ؛ رافق فتاة ليبية من أعضاء حركة اللجان الثوريّة وكانت هُناك مُحاولات جادة منه لاستدراجها للغرفة وتم إنقاذ الموقف بحمد الله، وسلَّم الله الوفد من المهالك، أيضًا حدثت تجاوزات من النسوة الائي رافقونا بتغيب بعضهم عن الطعام أحيانًا ، وكلفت ذات مرة بالقيام من فوق الطعام والذهاب إلى حجرة زميلة لنا تدعى (منى) من بني سويف واحضارها إن وجدت ، أو إبلاغ عدم تواجدها، وتبدأ عملية البحث عنها، فحدثت الفاجعة عندما رأيتها تأتي هرولة من مكان آخر في غيبة من زميلاتها الأربع، فلما رمقتني طلبت منِّي أن أذكر أنها كانت في حجرتها تأتي بحقيبتها التي نسيتها وتوضع في كتفها، ومن فرط جمالها وأدبها ورقتها وضعفي أمام الرقة الأنثوية وافقتها على كل ما قالت في شهادتي أمام المهندس رئيس الوفد الدمياطي الأصل، الذي أمرها بعدم العودة إلى مثل ذلك ثانية ومراعاة التعليمات، والحرص على مرافقة زميلاتها.. أما هيّ كانت آتية من أي مكان فالله أعلم ولكن ارتباكها

الشديد جعلني أشك في تحركاتها خاصة وكانت هي الأجمل ضمن الخمس نساء معنا، وكانت لم تبلغ الخامسة والعشرين عامًا، ولكن كل ذلك ظني فقط، لا دليل عليه..

والأهم من ذلك الثقة التي كنت أتمتع بها من رئيس الوفد ومُعظم أعضاء الوفد بأنني حريص على سُمعة كل من معنا واعتبارهِم أخوة لنا، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وهي ثقة قلما يتمتع بها أحد.

وحدث أن شكل الزميل سيد أحمد المشهور بسيد صحافة الموظف بجامعة المنيا -آنذاك- تشكيلًا عصابيًّا وهميًّا يدعى أنهم عصابة القِط الأسود التي ستغتال الأخ (بدر الأشهر) المُدير الإداري للوفد وهو زميل عزيز مُلتحٍ لا يميل إلى ملة أو جهة، مزواج يعشق النساء، فله من الحريم أربع يأويهن في حجرة ضيقة بمنيل شحية ويسبحن بحمده وفضله كل يوم وبل كل ساعة...

ورغم أن الموضوع برمته كان قصده الفكاهة والتهريج أو قل التسليّة؛ إلّا أن بدر أشهر، اتخذه مأخذ الجد وتقدم بشكوى رسميَّة إلى وكيل الحزب أمين عام الشباب عندما عدنا من رحلتنا الميمونة هذه، واتهمني اتهامًا صريحًا، أنني ضمن هذا التشكيل، وفي غيبتي برأني وكيل الحزب وأن مهمتي كانت مُراقبة السيدات وكتابة تقرير عن سلوكهن، ورغم أن هذا لم يحدث إلّا أنه أسعدني بحيثية رجوتها ووجود أتمناه..

ودعنا أعضاء حركة اللجان الثوريّة الليبيّة ممن رافقونا بعد أن دمعت عيوننا على الفراق، فحقًا كانت أيام جميلة وكانت صُحبة أجمل، وإقامة رائعة، قلما نجدها أو وجدناها في حياتنا، وتركت هذه الرحلة أثرًا بالحب في نفوسنا إلى الشعب الليبي كله وزادت من تعاطفنا مع القضيّة الليبيّة في تهمة تفجير طائرة فوق أسطح لوكيربي بأسكتلندا عام ١٩٨٨م، وطالبت فرنسا بتسليم متهمان قيل أنهما ضالعين في الحادث،

وأثبتت الأيام بطلان هذا واتضح أن ذلك تلكُّؤ وترصّد لليبيا شعبًا وحكومة، لأن القذافي كان شديد البغض للغرب ويعاديهم علانيّة بالشتم والسب والقذف، فثأرت أمريكا منه بقتله بطريقة مشينة لمسناها في نهاية حياته وقبره الذي سوى بالأرض عام ٢٠١١ حتى لا يمثل به أحد، رحم الله العقيد معمر القذافي الذي نهض بليبيا وشعبها، وحافظ على مقدراتها وكرامتها..

لاحظنا شيئًا مُهمًا جدًا في زيارتنا إلى ليبيا؛ أن اللهجة التي ينطقون بها قريبة جدًا إلى اللهجة المصرية والأقرب إلى اللهجة الصعيديّة.. والطباع تُشبه طباع المصريين إلى حد كبير، ولكن يشتهرون بحدة الطبع والشدة ومن الصعب تطويعهم حتى وإن كان ثوابًا لهم.

كان سفرنا إلى ليبيا في هذه المرة بالبطاقة الشخصيّة، فكان موضوع الجوازات زال بين البلدين وزالت الحواجز والتنابز برحيل السادات الذي صال وجال مع القذافي بهجوم متبادل أجَّجَ العلاقات بين الدولتين حينًا من الدهر.

وفي العام التالي صيف ١٩٩٣م رشحت إلى زيارة ثانية مع بعض من الزملاء وليس جميعهم فقد ثُم استبعاد البعض لسوء السلوك، فمن حاول توفير فرصة عمل لنفسه أو لغيره تم استبعاده كطارق القاضي من المنوفيّة وتم استبعاد (منى) من بني سويف وإبراهيم الخطيب بالأوقاف ورشح بدر أشهر وعبد الحميد عبد العال والعبد لله وتم استبعاد رئيس الوفد لمحاولة شق طريق يخطوه بمفرده، فأقصاه أمين عام الشباب، باختصار تمت الموافقة على سفر١٢ عضوًا من بين ٢٧ عضوًا كنَّا في العام الذي سبقه، وجاء السفر هذه المرة بجواز السفر بعد إلغاء السفر بالبطاقة الشخصيّة بين البلدين.. ولأنني كنت في الفرقة الرابعة بالجامعة ورسبت بخمس مواد ، وكانت كارثة حاولت أن أتنصل منها وكانت الجامعة ستسمح باستخراج جواز سفر يحدد هويتي في داخل مصر وخارجها باعتباري طالب مقيد بالفرقة الرابعة، وإزاء هذا

كله قررت من داخل نفسي أن أعتذر عن السفر، رغم أن الرحلة هذه المرة كانت بالباخرة عبر المتوسط وهو أمر كنت أتوق إليه ولكن كانت حالتي النفسيّة لا تسمح بذلك فقدمت تنازلًا مكتوبًا لزميل عزيز على نفسي كان يخشاه وكيل الحزب لقدراته الخارقة على توصيل العلاقات وتواصلها، وكانت إمكانياته تسمح له بأن يقنع الجميع بالوصول ومقابلة الأخ العقيد نفسه، من أجل هذا كله رفض وكيل الحزب السماح له بالسفر، والرحلة عمومًا لا تكلف الفرد فيها مليمًا واحدًا، بل قد تعود عليه بالنفع في بدل انتقال حتى ولو بسيط لا يكلفه مؤونة التنقل.

سافر زملائي ولست معهم وقضوا رحلة عبر المتوسط امتدت بهم إلى لبنان وتونس وزادت الفضائح لدرجة إجبار بعضهم على الزواج من أجنبيات احترازًا من قانون المحاكم الدوليّة وأعالي البحار، فحمدت الله على أن منَّ عليَّ بعدم السفر، فما كنت أضمن لنفسي العصاميَّة من براثن الشر المُنتشرة، والإنسان ضعيف وقد يضعف أكثر ويسقط في الرذيلة بسهولة ويُسر، ومما أبهرني بالثقة الغاليّة عقب عودتنا من رحلتنا إلى بني غازي سبتمبر ١٩٩٢م أن أمرني رئيس الوفد بمرافقة زميلة طالبة جامعيّة في نفس السن وتدرس معنا في نفس الكُليّة ، أن أقوم بتوصيلها حتى منزلها بالوراق، وألّا أتركها إلّا وهيّ في أيدي أهلها، الذين رحبوا بي ورفضوا خروجي حتى أبات عندهم وأتناول طعام العشاء وفي الصباح تناولت معهم طعام الإفطار، وكم كانت علاقتهم بي حميمية وأحبوني وأحببتهم ، ولكن رعونتي كانت حائل بيني وبين فهم مصلحتي ومُستقبلي والتفريق بين من يُحبني ومن يبغضني، أو يمكن أن أسميه قلة فهم أو سوء فهم أو عدم توفيق في حياتي أضاع عليَّ كثيرة من الفرص المهمة التي كانت تجلب الخير الدائم ثُم أتركه إلى مهالك الشر..

مع أن دعوات والدي ووالدتي كانت تحرسني، ودعاء جدتي لأبي التي فارقت الحياة وهيّ نائمة برأسها على ذراعي في ليلة الجُمعة الموافق ١٩٨٩/٩/٢٩م (بأن الله يحنن عليَّ ويحبب فيّ خلقه)، ويحنن

أي يرزقني من وسعه ومحبة الخلق أجدها في كل مكان أضع فيه قدمي، والحمدُ لله أجد من الرزق ما يكفيني مؤونة السؤال والذل والهوان، ولهيب المعدة والهفتان، وأحمد الله على أي حال، هو مقدر الأقدار سبحانه وتعالى..

مسحة ريفيّة

لا شك أن القرية كان لها تأثير كبير في تشكيل الذات والحوار مع الأحداث والتفاعل معها، ولا شك أن أخلاق القرية أضحت عملة نادرة؛ بل عملة غائرة أو قل خاسرة، في مجتمع لا يؤمن بالنيّة الحسنة والقصد الكريم، عالمٌ ملئٌ بالمُشاحنات والإنقلابات يجعل من الشخص قدرة على تحريك ملذات الواقع لما هو أنفع للبشريّة مهما كانت العواقب وجلب الشرور والآثام..

الصحفي الذي خرج من الريف استطاع أن يتفاعل مع كل المُعطيات المُتاحة وغير المُتاحة له في الوجود، والذي انتقل من مقاعد المُتفرجين إلى ساحات المُستطيل الأخضر يراقص الساحرة المُستديرة يُصوب حينًا ويسجل أحيانًا.. آمن بالحرث والغرس، وعلم بعد فوات الأوان أنه أخطأ وسار وفق هواه فوق صهوة جواده ونسى لجامه ، أو قل نسى أن يلجم جواده قبل أن يسوقه وهو على ظهره، فسار كما أراد أن يسير الجواد، لا كما أراد هو للجواد أن يسير!! فاختلف المسير وجنح أحيانًا إلى العسير..وحتى الساعات التي كانت مُخصصة للراحة والاستجمام استغلها للغدو والترحال عبر شريط الصحراوي بين القاهرة والإسكندريّة يوم الإثنين من كل أسبوع، يبحث عن ضالته عبر الحقول في الزروع، عشق عودة الفلاحين في المساء من الغيطان بدوابهم وبقرهم وجاموسهم والكلاب التي تحرس الغنم، ولكن الذئب أبدًا لن

يحرث الغنم إطلاقًا..عاد بعد فوات الأوان يقتني الكتب ويقرأ ما يسعه الوقت ويحظى الدرجات العلميّة ونسى أنه في الخمسين يتقدم بخُطى ثابتة صوب الستين، وكأن الدهر له وحده بأمل المائة والعشرين!!

كما كانت البداية فلا بد أن تأتي النهاية شريطة ألّا ينهي أيامه ويضع لحياته وقتًا ببنانه.. الأعمار مقدرة والأرزاق مُقسمة، وحال أفضل من حال، ونجاته من مصير سبقه من قتل زميلته لينهي حياته وحياتها حتى لا يهنأ أحدهما ويلهو مع آخر، ولكن الله سلم له مرتين في نهاية الثمانينات وبدايات العقد المنصرم ولكن -هيهات- قدر الله الأوقات، والحياة لابد لها من نكبات.

والحكم للمُتلقي فهو ضلع بارز من أضلاع الإبداع في سماء الأوجاع!

***

تمت بحمد الله وتوفيقه..

الأحد ١٨ فبراير ٢٠٢٤م ــ ٨ شعبان ١٤٤٥هـ

١٧ أمشير ١٧٤٠ ــ فيصل، العشرين

الفهرس

العنوان	التاريخ	رقم الصفحة
اهداءات		٥
الفصل الأول	١٩٩٤/٤/١٦	٦
الفصل الثاني	١٩٩٥/٩/١٧	٢٢
الفصل الثالث	١٩٩٥/٩/٢٥	٣٥
الفصل الرابع	١٩٩٥/٩/٢٧	٤٩
الفصل الخامس	١٩٩٦/٦/١٩	٦١
الفصل السادس	١٩٩٧/٣/١٢	٧٦
الفصل السابع	٢٠٠٢/٦/٢٢	٨٧
الفصل الثامن	٢٠٠٤/١٢/٤	٩٨
الفصل التاسع	٢٠٠٨/٤/٢٢	١٠٩
الفصل العاشر	٩٢-٩٧- ٢٠٠٤	١٢٢
الفصل الحادي عشر	١٥:٨سبتمبر ١٩٩٢	١٤٤